(١)

قصة الإنسان
من المبتدأ إلى المنتهى

obeikandl.com

obeikandl.com

خَليفَـــة فى الأرْض

«وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفِك الدماءَ ونحن نُسَبّحُ بحَمدِك ونُقدّسُ لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون»

(سورة البقرة)

obeikandl.com

obeikandl.com

تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم ، أبي البشرية .

ولا مجال هنا لجدل حول نظرية التطور وخلق آدم ، فآدمُ في النص القرآني هو الإنسان الأول الذي بدأ منه طورُ البشرية . والقرآن الكريم يشير إلى أنه تعالى قد « خلقكم أطواراً » كما يلفت إلى مرحلة زمنية ، لم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً »

كذلك لا مجال للتعرض لما خاض فيه المفسرون من تفصيلات لكيفية خلق آدم من تراب أو طين ، فقد أعفاني أستاذنا العالم « الدكتور محمد كامل حسين » من ردّ ما قالوه من تأويلات لا يحل أن نُلزم القرآن بها وليس فيه نص صريح على كيفية خلق آدم ، والله تعالى لم يقصر الخلقة من تراب أو من طين على آدم وحده ، بل يستوي في ذلك الناسُ جميعاً ، خلقَهم تعالى من تراب ، أو من طين لازب ، فشهد ذلك على أن مادة الإنسان ترابية ، وهو ما لا نزاع فيه .

وقد أضيفُ إلى ما ذكره أستاذنا في هذا[1] ، أن القرآن حين يلفت إلى خلق الإنسان من تراب وطين ، فليس من الضروري أن يكون أحدنا عالماً بترابية مادة الإنسان لكي يؤمنَ بالقدرة الخالقة ، وإنما

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين : الجزء الثاني من (متنوعات) : قصة آدم .

حسبه أن يلتفت إلى الأرض ، ندفن جثث موتانا في ترابها . فتتحلل عناصرها ذائبة في التراب الذي يتغذى الأحياء من نباته ومعادنه وباقي عناصره . . .

ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من هذا الالتفات ، ليُدرك أننا خُلِقنا من تُراب وإلى التراب نعود ، على المشهودِ المنظور والواقع الحسي المدرَك . . .

« الذي جعلَ لكم الأرض مَهداً وسلك لكم فيها سُبُلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كُلوا وارعَوا أنعامَكم إن في ذلك لآياتٍ لأولي النُهَى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نُخرجكم تارة أخرى »

(طه ٥٣ : ٥٥)

• • •

ومن بدء الخليقة ، اصطُفِيَ الإنسانُ الأول للخلافة في الأرض .

ولست أدري ما إذا كانت الرسالات التي سبقت الإسلام قد نزلت بهذا الاصطفاء ، وإنما قصارى ما أعلمه ، هو ما جاء في كتاب الإسلام من إعلانِ خلافةِ آدم في الأرض . فإن يكن هذا الإعلانُ غيرَ مسبوق إليه في رسالة قبله ، فلعل البشرية لم تكن قد بلغت من الرشد المرحلةَ التي تهيئها لوعي هذه الخلافة ، وإدراك خطر جلالها وتبعات أمانتها ...

وإن امتد عهدُها بها موغلاً في أعماق الزمن السحيق إلى عصرِ النشأة الأولى .

أو بتعبير أدق ، كان آدم أبو البشرية موعوداً بها من قبل أن

يُخلَق ، في اللحظة التي آذنت الكونَ باستقبال هذا الطورِ الجديد من الخلق .

• • •

وما أقدمه هنا ، يبدأ من حيث انتهى « الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين » في خطوته الرائدة على الطريق . ولا أرجع في شيء مما أكتب إلى غير القرآن الكريم ، بعد استيعابٍ لما في كتب التفسير ، واستبعادِ ما هو دخيلٌ على جوهر الفكرة القرآنية الأصيلة ، من مدسوسات الإسرائيليات ومقحماتها الأسطورية التي شابت فهمَنا لكتاب ديننا ، وتركت أثرها الباقي في الفكر الإسلامي .

• • •

في مستهل العهد المدني ، نزلت سورة البقرة ، وفيها ذكر لإعلان خلافة آدم في الأرض :

« وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماءَ ونحن نُسَبّحُ بحمدِك ونُقدّس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون »

والآية ، ومعها آياتُ خلق آدم ، صريحة في أنه مسبوق بأنواع أخرى غير بشرية ، منها هذه الملائكة التي لا ندري كنهها ولا يأذن لنا العلمُ في أن نخوض فيها ، وهي من الميتافيزيقية التي لا تخضع لمجال إدراكه وتجربته ،

وكذلك لا يأذن لنا الدين أن نقول فيها ، بأكثر مما تلاه علينا كتاب ديننا .

ومنه نعرف أن الملائكة طور سابق على خلق آدم ، وقد عاشت في عالمها الذي لا يحيط به إدراكنا ، خاضعة لنواميس غير التي يخضع لها جنسُنا الآدمي ، تُسيّرها الإرادة العليا على وجه التسخير ، فتأتمر بها في خضوع وإذعان ، دون أن تُبتلى بحرية إرادة واختيار ، ودون أن تهيئها طبيعتُها لعلمٍ أو خُلُقٍ كَسْبي . بل دون أن تدرك ضرورةً ما ، لوجودِ طورٍ جديد من المخلوقات ، ليس له مثلُ خضوعها وتواضعها وطهرها ، وهي المذعنة للتسخير المطلق ، والكون يسير — قبل هـذا الآدمي — في سلام ، والملائكةُ فيه رسلُ ربّهم « لا يَعصُون اللهَ ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون »

* * *

ولنا أن نفترض دون تعسف ، أن المرحلة التي سبقت وجودَ آدم مباشرةً ، كانت مؤذنةً بتحولٍ وشيك ، ظهرت بادرتُه الأولى حين تلقت الملائكةُ الإيذانَ بخلق آدم خليفةً في الأرض ، فبدأتْ تفكر في العلل والأسباب ، على غيرِ المعهود في طبيعتها من الإذعان والتسليم ، وقيامها بأمر اللهِ دون تفكيرٍ أو مراجعة !

ويؤنسنا في هذا الافتراض ، أن القرآنَ على كثرة ما تحدّث عن الملائكة ، كان موقفها فيه من خلافة آدمَ في الأرض ، هو الموقف الوحيد الذي مارست فيه الملائكة حقَّ السؤال والجدل ! وفيما عدا هذا الموقف ، يأتي حديثُ القرآن فيصرفنا عمداً عن البحث في كُنهها وجوهرِها ، ويَذكُرها رُسُلاً مسخرين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، حافّين من حول العرش يُسبّحون بحمد ربهم ، ويسجدون للهِ وهم لا يستكبرون .

حتى إذا قال لهم سبحانه : « إني جاعلٌ في الأرض خليفة »

استباحوا أن يسألوه تعالى : « أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدماءَ ونحن نسبح بحمدك ونقدّسُ لك » ؟

وقد عادت الملائكة ، بعد كلماتٍ من الله ، إلى مألوفِ وضعِها من الطاعة والامتثال والإذعان ، لم يشذ عنها إلا إبليسُ فباء باللعنة :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليسَ أبى واستكبر وكان من الكافرين »

ويسوقنا هذا الافتراضُ ، إلى تصورِ المرحلةِ السابقة مباشرةً على الطور الآدمي ، شبيهةً بمراحل الإرهاصِ والتهيؤ التي تعرفها الحياةُ ويثبتها العلم البيولوجي والتاريخُ الحضاري ، إذ يلمح دائماً قبيل كلّ طورٍ أو عصرٍ جديد ، بوادرَ التحول المرتقب ، وفيها تلوح على الطورِ السابق بعضُ سِماتٍ وملامحَ من الطور الجديد .

ففي هذا الموقف الذي وقفته الملائكة من قول الله : « إني جاعل في الأرض خليفة » ما يشبه أن يكون بادرةً مؤذنةً بجديد ، إذ أن الإنسان وحده هو الذي انفرد دون الكائنات بخاصية التفكير والجدَل ومسؤولية الاختيار ، وما عهدنا الملائكة فيما تلا علينا القرآن من أمرها ، تتجه إلى مثل ذلك السلوك المجافي لخِلقتها وطبيعتها ، وهو السلوكُ الذي لا نلبث أن نراه خاصيةً مميزة للطورِ الآدمي الجديد .

ولقد كانت فتنةُ إبليس ، أثراً لوقع النبأ الجديد على الطور السابق لآدم والذي لم يتهيأ لغير الطاعة والتسخير . . .

كما كان إصراره على المعصية ، إيذاناً بالصراع المحتوم بين الخير

والشر ؛ وبياناً للهوة السحيقة الفاصلة بين عصر الطاعة المطلقة والتسخير التام ، وبين ما ينذر به الاختيارُ من إمعانٍ في التمرد ، وانحراف إلى الشر والضلال .

والآدمية ليست ملائكية ولا إبليسية :

ليست جبريةَ تسليمٍ وطاعةَ تسخير ، ولا هي محض شرٍّ وشهوة تمردٍ وإصرار على الضلال . . .

وإنما هي تحقيقٌ للذاتٍ ، عن تمييز ووعيٍ وإرادة . . .

هي تجربة الابتلاء ، يتعرض فيها آدمُ للغواية فيغوى ، ثم يؤرقه ضميره وتحاسبه النفسُ اللوامة ، فيندم ويتوب . . .

ويمضي ليمارس خلافتَه في الأرض ، فلا تكون حياتُه كلها ، من بدء خلقه إلى آخر وجوده ، إلا معركة متصلة بين الخير والشر ، يحتمل فيها تبعة عمله ومسؤولية اختياره .

وعصمة الملائكة عن إجبار ، دون خيرية البشر عن اختيار .

وكل خيرٍ من الإنسان ، كَسْبِيٌّ لا تحظى به الملائكة المسَخّرة ...

وأي شر ، تنسخه التوبةُ ويكفر عنه حسابُ النفس اللوامة ...

هذه هي الآدمية السوية التي استحقت الخلافة في الأرض .

وحين يشذ بعض أفرادها عن هذه الآدمية السوية ، فيقترف الشر شهوةً ومتعة ، دون أن يردعه ضمير أو يؤرقه قلق ، فإن هذا الشذوذ يخرج بمثل ذلك الشرير عن طبيعة الآدمية ويمسخه شيطاناً مريداً ، من صنف إبليس ، أصل الشر .

من هنا لم يكن فيما توقعت الملائكةُ لآدم قبل أن يُخلق ، من إفسادٍ

في الأرض وسفك الدماء ، ما يسوّغ حرمانَه من الخلافة فيها ، دون الملائكة التي تسبّح بحمد الله وتقدّس له .

فالابتلاء يقتضي أن تكون أمام آدم شرورٌ تغويه لكي تمتحن طاقته وتصهر معدنه .

وأمانة الإنسان تعني أن يواجه التجربةَ ويخوضَ المعركة بين الخير والشر . ليكون خيرُه له وشرّه عليه .

وهو ما خُلق ليعيش في أفقِ الملائكة التي تُسبّح بحمدِ الخالق وتقدس له ، وإنما خُلق ليعيش حياتَه على هذه الأرض ويمارس خلافته فيها .

والخير المحض لا يسوّغ الخلافةَ ، إن كان جبريّاً بغيرِ إرادة واختيار .

obeikandl.com

اُسْجُدُوا لِآدَمَ

« وإذ قلنا للملائكة اسجُدوا لآدمَ
فسجَدوا إلا إبليسَ أبى واستكبر
وكان من الكافرين »

(سورة البقرة)

obeikandl.com

obeikandl.com

تمضي الآيات في بيان موقف الملائكة من خلافة آدم في الأرض مع ابتلائه بالافساد وسفك الدماء ، والاشتغال عن تسبيح الله والتقديس له :

« وعلّم آدمَ الأسماءَ كلَّها ثم عرضَهم على الملائكةِ فقال أنبئوني بأسماءِ هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقلْ لكم إني أعلم غيبَ السمواتِ والأرضِ وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليسَ أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدمُ اسكن أنت وزوجُك الجنة وكُلاَ منها رغَداً حيثُ شئتما ولا تقرَبا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطانُ عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ ولكم في الأرضِ مُستَقَرٌّ ومتاعٌ إلى حين . فتلقى آدمُ من ربِّه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدىً فمَن تبع هُداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

(البقرة ٣١ : ٣٩)

ويذهب عدد من المفسرين إلى تأويل قوله تعالى على لسان الملائكة :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » بنفيِ دعوى الملائكةِ عن هذا الإفساد في الأرض وسفك الدماء !

وسياقُ الآيات بعدها . فضلاً عن نصّها ، لا يعين على هذا مثل التأويل بحال ما ، إذ ما لبث آدم أن عصى ربّه ، وتعرض هو وزوجه لغواية الشيطان فأزلهما عن الجنة . وما لبث ولده أن سفكَ دمَ أخيه ، حين لم يكن في الأرض غير هذه الأسرة الآدمية الأولى !

وإنما كان وجهُ الإيثار بالخلافة في الأرض ، هو العلم . وبه كان الرد على الملائكة فيما عجبت له من استخلاف آدم في الأرض .

* * *

ولا بدّ هنا من استطراد يسير ، أشير به إلى ما ذاع في البيئة الإسلامية وشاع ، من خلق حواء من ضلع آدم . وليس في القرآن كله ما يشير من قريب أو بعيد إلى أنها خلقت من ضلعه أو غير ضلعه ، بل ليس فيه لفظ ضلع أو أضلاع على الإطلاق !

الذي فيه أنها زوجه ، خلقهما الله من نفس واحدة وخلق منها زوجها :

« يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجَها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا اللهَ الذي تساءلون به والأرحامَ إن الله كان عليكم رقيباً »

(النساء : ١)

وقد أكد كتاب الإسلام هذه الخِلقةَ من نفسٍ واحدة في آيات أخرى بينات ، من سور الأنعام والأعراف والزمر .

وهم يذكرون في حكاية الضلع هذه ، حديثاً مروياً عن الرسول صلى الله عليه وسلم يشبه فيه المرأة بضلع أعوج ، إن حاولتَ تقويمه بالشدة والعنف كسرته . وقد فهموا هذا الحديث فهماً حرفياً ، مع أن الضلع فيه ، من التعبير المجازي الذي نعرفه في أسلوب البيان العربي . وإذا صح الحديث فليس القصد منه تحديد أصل الخلقة ، وإنما هي وصية من نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ، بالترفق بالمرأة والتحذير من أخذها بالشدة ، مثله مثل الحديث الآخر : « رفقاً بالقوارير » .

فهل خُلقت النساء من قوارير ؟

وأشير كذلك إلى القصة الذائعة التي تستهل فيها حواء الأولى حياتها بالغواية والإغراء ، وفيها تبدو الأنثى الأولى ، أم الآدمية ، أداة طيعة لإبليس على الشر ، ووسيلته إلى التسلط على آدم وإغرائه بعصيان خالقه والأكل من الشجرة المحرمة .

والحق أن ليس في كتاب الإسلام إشارة ما إلى أن إبليس بدأ بإغواء حواء فأغرت زوجها بالأكل من الشجرة المحرمة فأخرجته من جنته . وإنما الذي في القرآن الكريم أنها كانت مكلفة مثله بالنهي عن قرب هذه الشجرة . فأكلا منها بوسوسة إبليس .

(الأعراف ١٩ : ٢٤ ،
والبقرة ٣٥ : ٣٩)

وقد كان العهد لآدم ، وهو الذي نسي وغوى ، وإبليس تعرض له مباشرة بالوسوسة والإغواء دون أن يسلط عليه زوجه . أو يتوسل إليه بها :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً .
وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى

فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تَضْحَى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »

(طه ١١٥ : ١٢٢)

* * *

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى ما كنا فيه من قصة الإنسان في المبتدأ ، كما تلاها علينا كتابنا الديني ، حين آذن الله الملائكةَ بخلق آدم وجعله خليفة في الأرض ، ثم أمرهم أن يسجدوا لآدم .

سبحانه ! جعل آدمَ خليفة في الأرض ، وأكرمه فأمر الملائكةَ أن يسجدوا له وإنه تعالى ليَعلم نزوعَ الآدمية إلى الفساد وتعرضَها لمحنة الغواية . وما يجوز عليها من أعراض الضعف والخطأ والنسيان ، فكأنما هو ابتلاء لها بالشر والخير فتنة .

واختلف اللغويون والمفسرون في تأويل هذه الأسماء التي علمها الله آدم ، فقال « الراغب » في ,, المفردات ،، إنها الحروف والأفعال والأسماء . وهو قريب ممن ذهبوا إلى أن الأسماء هي اللغات ، واستدلوا بالآية على أن اللغات توقيفية ، تلقاها آدمُ من ربه . لا يقتصرون فيها على لغة واحدة كان آدم يتحدث بها ، وإنما هي كل اللغات التي جرى بها لسان بني آدم ، القديم منها والحديث !

ونقل « الإمام الطبري » في تفسيره للآية ، مروياتٍ شتى في تأويل الأسماء :

فهي أسماء الملائكة عند بعض المفسرين .

وعم بها آخرون : اسم كل شيء ، كالبعير والبقرة والشاة والقصعة .

وأضاف بعضهم : والجن والوحش !

وذهب نفر منهم إلى أنها أسماء ذرية آدم !

ثم قال الطبري :

« وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل على صحته ظاهرُ التلاوة ، قولُ من قال إنها أسماء ذريته وأسماء الملائكة ، دون أسماء سائر أجناس الخلق ، وذلك أن الله قال . « ثم عرضهم على الملائكة » يعني أسماء أعيان المسمين بالأسماء ، ولا تكاد العرب تكنى بالهاء والميم (هم) إلا عن أسماء بني آدم والملائكة . وأما أسماء البهائم وسائر الخلق سوى مَن وصفنا ، فإنها تكنى بالهاء والألف أو بالهاء والنون » — يعني : عرضها ، عرضهن .

ولم يفت « الطبري » أن القرآن نفسه ، أضمر عن غير العاقل بضمير العاقل في مثل قوله تعالى :

« والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » ،

فكنى عنها بـ « هم » وهي أصناف مختلفة ، فيها الآدمي وغيره [1] .

---

١ أصرح من هذه الآية التي ذكرها الإمام الطبري ، آيات الصافات في إبراهيم والأصنام : « فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون » ٩١ : ٩٢ ، والأنبياء : « فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » « قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » . وواضح من السياق إرادة السخرية بها والإشهاد على غفلة عابديها وتبكيتهم .

لكن الطبري استطرد فقال :

« وذلك وإن كان جائزاً فإن الغالب المستفيض في كلام العرب ما وصفنا من إخراجهم كناية الأجناس المختلفة بـ : ها ، وهن ، فلذلك قلت : أولى بتأويل الآية أن تكون الأسماء التي علمها آدم ، أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة . وقرأ ابن مسعود : ثم عرضهن . وقرأ أبيّ : ثم عرضها .

« وعلى قراءتنا ورسم مصحفنا ، أن الدلالة على بني آدم والملائكة أولى منه بالدلالة على أجناس الخلق كلها ، وإن كان غير فاسدٍ أن يكون دالاً على جميع أصناف الأمم »[1] .

والذي استبعده الطبري ، هو ما اختاره « الزمخشري » ، قال :

« أراد الأجناس التي خلقها ، وعلّمه أن هذا اسمُه فرس ، وهذا اسمُه بعير ، وهذا اسمُه كذا وكذا ، وعلمه أحوالَها أو ما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية .

« وإنما استنبأهم ، وقد عَلِمَ عجزَهم عن الإنباء ، على سبيل التبكيت : إن كنتم صادقين في زعمكم أني استخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء . . . إرادة للرد عليهم وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ، ما يستأهلون لأجله أن يُستخلَفوا . فأراهم بذلك وبيّن لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في اختلافهم »[2] .

ولا نرى وجهاً لكل هذه التأويلات ، أو إقحام قضية التوقيف في اللغات التي نعرف موقفَ علم اللغة منها . والقرآن الكريم قد أشار في

---

١ تفسير الطبري : سورة البقرة .

٢ الكشاف : ج ١ سورة البقرة .

أكثر من موضع ، إلى أسماءٍ ما أنزل الله بها من سلطان :

« قالوا أجئتنا لنعبدَ الله وحده ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا فائْتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربّكم رِجْسٌ وغضب ، أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم ما نَزّل اللهُ بها من سلطانٍ ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين »

(الأعراف : ٧١)

« وما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطانٍ »

(يوسف : ٤٠)

فشهد ذلك بأن من الأسماء التي يعرفُها الآدميون ، ما لم يتلق آدمُ من ربه !

حسبنا ما تلفت إليه الآية ، من اختصاص آدمَ بعلم الأسماء كلها التي لم يكن للملائكة علم بها ، في سياق الإقناع بإيثاره بالخلافة في الأرض وأهليته لها .

والأسماء قد تطلق على أعيان الأشخاص ، كما قد تطلق ويُعنى بها الدلالة على المسميات علامةً مميزة لكلٍّ منها . والعربية تستعمل الاسمَ والسمةَ بمعنى ، وتقول استمى الصائدُ ، إذا لبس اللباس الدالّ على الصيد ، وتوسمتُ فيه الشيءَ : لمحت فيه علامته وسمته .

ولا معنى لأن نتأول الأسماءَ هنا بكلِّ اللغات ، ولعل الأمر فيها ، هو ما ذهب اليه الشيخ محمد عبده في قوله :

« والعلم إنما هو إدراك المعلومات أنفسها ، والألفاظ الدالة عليها

تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح فهي تتغير وتختلف ، والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف »[1] .

• • •

ويبدو أن الشيخ محمد عبده ، يميل إلى حمل آية : « وعلم آدم الأسماء كلها » إلى « ما تهيأ في فطرة هذا الخليفة الإنساني واستعداده ، من علم ما لم يعلموا — الملائكة — فتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة في الأرض ، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه ، وناهيك بمقام العلم وفائدته وسر العالم وحكمته » .

وهو تأويل مقبول ، لا يمنعه ما في الآية من النصّ الصريح على أن آدم في بدء حياته ، علم بتوفيق الله ما استطاع به أن ينبئ عن أسماء لم يُعلمها الله الملائكة .

وقد عاد الشيخ محمد عبده ، فقال شبهَ مستدرِك ، فيما نقل عنه صاحب المنار :

« ثم إن الذي يتبادر إلى الفهم من صيغة التعليم هو التدريج : « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »

« ولكن المتبادر من تعليم آدم الأسماء أنه كان دفعة واحدة إذا أريد بآدم شخصه ، بالفعل أو بالقوة . . .

« ولذلك قال شيخنا : عَلَّمَ الله آدمَ كلَّ شيء . ولا فرق بين أن يكون له هذا العلم في آن واحد أو في آنات متعددة ، والله قادر على كل شيء . ثم إن هذه القوة العلمية عامة في النوع الآدمي كله ،

---

١ تفسير الذكر الحكيم : ١/٢٥٢ .

ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم ، فيكفي في ثبوت هذه القوة لهم ، معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال .. ومن ذلك عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا وما أودعته فطرتنا ، فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خُلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق ، لتظهر حكمة الله فينا ، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ومعنى سجودهم لأصلنا : ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكّرون » .

• • •

والزمخشري ، يوجه الآية في خلافة آدم في الأرض ، وفي علمه الأسماء ، إلى عموم الجنس الآدمي ، إذ تمضي عبارته في (الكشاف) حديثاً عن الجمع ، في استخلاف « مفسدين سفاكين للدماء ، إرادة للرد على الملائكة ، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن يُستخلفوا » .

ثم يقرر ذلك صراحة حيث يقول :

« واستغنى بذكر آدم عن ذكر بنيه ، كما يُستغنى بذكر القبيلة في قولك : مضر وهشام »

وذلك التعميم ، هو ما يُفهم من عبارة الشيخ محمد عبده :

« فيصح أن يكون معنى الخلافة عامّاً في كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات » . . .

ولا يفوتنا الالتفات إلى ما في قول الملائكة : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » من نفي كل علم كسبي عن جنس الملائكة ، على حين

يتميز الإنسان دون الكائنات الأخرى ، بالقدرة على تحصيل العلم الكسبي واستعداده لكسب المعارف الوضعية ، وفي ذلك يقول الشيخ محمد عبده في تفسير الآية :

« . . . وكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية ، فإن له استعداداً محدوداً وعلماً إلهامياً محدوداً وعملاً محدوداً . . .

« وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً وخلقه جاهلاً ، ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر وموضع لعجب المتعجب ، لأنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء ، ومع جهله في نشأته يعلم جميع الأسماء ، ويُعطي قوة أخرى تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفاً يكون له بها السلطان على هذه الكائنات فيسخرها ويذللها كما تشاء تلك القوة الغريبة التي يسمونها العقل ولا يعقلون سرها .

« فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العقل . نعم إن هذا العلم الواسع لا يُعطاه فرد من أفراد الإنسان ، ولا مجموع النوع الإنساني دفعة واحدة فيشابه علم الله تعالى ... فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الإلهي إلا قليلاً ، وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الإلهي »[1] .

* * *

وقد تكرر الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم ، في آيات : البقرة ٣٤ ، الأعراف ١١ ، الحجر ٢٩ ، الإسراء ٦١ ، الكهف ٥٠ ، طه ١١٦ ، ص ٧٢ .

---

١ تفسير الذكر الحكيم : ١/٢٥٢ .

يلفتنا منها بوجه خاص ، آية الأعراف :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين » — ١١ .

مما تبيح لنا من الاطمئنان إلى أن نعتبر أبوةَ آدمَ للإنسان هي موضع هذا التكريم ، إذ أن الخطاب في صدر الآية عام لبني الإنسان . وهذا العموم مستفاد من ضمير الجماعة للمخاطبين : « خلقناكم ثم صورناكم »

والسجود إذا كان لغير الله ، فليس معناه العبادة بالمصطلح الديني لمعنى السجود ، وإنما هو الخضوع ، على أصل الاستعمال اللغوي للمادة .

وبهذا المعنى تفسر آيات السجود لآدم ، أو للنوع الإنساني فيه .

ويفرق « الراغب الأصفهاني »[٢] بين ضربين من السجود لله : سجود باختيار وليس ذلك إلا للإنسان ، وبه يستحق الثواب . وسجود بتسخير ، وهو عام في المخلوقات :

« ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكةُ وهم لا يستكبرون » .

(النحل : ٤٩)

وانظر آيتي الرعد ١٥ ، والحج ١٨ .

وهذا السجود الاختياري ، مظهر من مظاهر الإرادة الحرة التي يحتمل الإنسان مسؤوليتها فيما يحتمل من أمانة إنسانيته .

• • •

---

١ مفردات القرآن : مادة سجد .

وقبل أن نتابع القصة ، نقف هنا لنستخلص من آيات البقرة في خلافة آدم في الأرض وأمر الملائكة بالسجود له ، ما تلفت اليه من أمور ثلاثة :

أولها : أن تكريم الإنسان الأول ، الذي تمثل في الأمر الإلهي بأن يسجد الملائكة له ، كان المسوغ الظاهر له في سياق الآية ، هو ما اختص به آدم من علم يختلف عن علم الملائكة الذي لا مجال فيه لميزة الكسب :

• سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا •

والثاني : أن أبوة آدم للنوع الإنساني ، هي موضع التكريم والاستخلاف في الأرض .

والثالث : أن الخلافة في الأرض اقتضاها ما يحتمل النوع الآدمي من أمانة إنسانيته ومسؤولية عمله وكسبه ، وتبعة الابتلاء التي أعفى منها الملائكة بالتسخير المطلق .

ويأتي الحديث عن هذه الأمانة الصعبة ، بعد أن نتدبر ما يتصل بعلم الإنسان من اختصاص بالبيان .

خَلَقَ الإنسَانَ ، عَلَّمَهُ البَيَان

« الرحمنُ . علّم القرآن . خلق
الإنسان . علّمه البيانَ »

(سورة الرحمن)

obeikandl.com

obeikandl.com

الآيات من سورة الرحمن ، مدنية ، وفيها لفت إلى اختصاص الإنسان بالبيان مع ربط سياقه بالقرآن ، معجزة النبي العربي عليه الصلاة والسلام .

وتأتي صيغة «بيان» في القرآن ثلاث مرات ، كلها في سياق يتصل بهذا القرآن الذي نزل على نبي أمي من العرب ، فأعياهم أن يأتوا بسورة من مثله .

والآيات الثلاث هي :

آية القيامة ١٩ : « فإذا قرأناه فاتّبِعْ قرآنَه . ثم إن علينا بيانَه » .

وآية آل عمران ١٣٨ : « هذا بيانٌ للناسِ وهدىً وموعظة للمتقين».

وآية الرحمن ٤ : « علّم القرآن . خلق الإنسانَ . علّمه البيانَ »

كما جاء المصدر بصيغة تبيان ، في آية النحل ، مفعولا لأجل تنزيل الكتاب :

« ونزلنا عليك الكتابَ تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ٨٩ .

وكل استعمال المادة (ب ي ن) بمختلف صيغها ، يدل دلالة صريحة على الوضوح والإبانة الكاشفة . ويأتي ذكر القرآن « كتاباً مبيّناً » كما توصف آياته تعالى بالبينات . والبينةُ : الحجة الواضحة الملزمة .

ومن هنا يختلف البيانُ عن مجرد النطق الصوتي ، وقد جاء المنطق مضافاً إلى الطير في آية النمل :

« وورِث سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناسُ عُلِّمْنا منطقَ الطيرِ وأُوتينا من كل شيءٍ إن هذا لهو الفضلُ المبين » ١٦ .

واختلف اللغويون والمفسرون في وجه استعمال المنطق للطير :و «ابنُ سيدَه» يستشهد بهذه الآية على أن المنطق قد يستعمل لغير الإنسان ، على حين يقول « الراغب الأصفهاني » في مفردات القرآن : «النطق .. الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان وتعيها الآذان ، ولا يقال للحيوان ناطق إلا مُقيداً أو على التشبيه . كقول «جرير» :

• لقد نطق اليومَ الحمامُ لتطربا •

والواقع أن العربية في توسعها المجازي ، تسيغ أن نقول : نطق الطير : ونطق الحيوان ، ونطق الصخر والجماد . بل قد نقول في اللوحة الفنية لرسام بارع : صورة ناطقة . كما نقول في التمثال المنحوت بمهارة من معدن أو حجر : تمثال ناطق .

لكن العربية لا تسيغ إسنادَ البيانِ ، بمفهومه الخاص ، إلى حيوان أعجم أو جماد ، ومن هنا كان اختيارُ لفظ «البيان» للمصطلح البلاغي من فن القول الذي هو من خصائص الإنسان وحده .

• • •

واختصاص الإنسان بالبيان في سورة الرحمن يرتبط بهذه المعجزة البيانية للنبي العربي . وبها ساير الدين تطور البشرية ، فكانت معجزة «موسى» مناسبة لعصر السحر ، وكانت معجزة «المسيح» الخارقة للعادة ، هي دليل نبوته في عصر الأبطال الذي اقترنت فيه البطولة بالخوارق .

وبزغ عصر الإنسان ، فكانت معجزة خاتم الأنبياء ، هذا البيان الذي يخاطب الحس المرهف والضمير الحي والبصيرة الواعية ، ويرقى بالبشرية

إلى المستوى الذي يُرجَى لها فيه أن تؤمن بكتاب مبين ، معجزة نبيّ أمي من البشر ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق .

• • •

ويأخذ البيان من حيث وضعَه القرآن ، مكانته الأصيلة في إنسانية الإنسان . وقد جهد الفلاسفة والمفكرون في الوصول إلى خصوصية تميز النوع الإنساني من عموم جنسه في الحيوان ، فكان النطق هو هذه الخصوصية المميزة لنوعنا ، حين يستوي مع عامة الحيوان فيما تقوم به الحيوانية من طعام وشراب وتناسل ، وما تحتاج إليه من ضرورات البقاء المادي .

ومن ثم قالوا في تعريف الإنسان إنه «حيوان ناطق» واطمأن المناطقة إلى أنه تعريف جامع لكل أفراد الإنسان ، مانع لغيره من الحيوان الأعجم .

وإذ يعد القرآنُ البيانَ خاصيةً مميزة للإنسان عن عامة جنسه الحيواني ، فإنه يلفت إلى أن مجرد النطق الصوتي ليس مناطَ إنسانيته الناطقة . ونستأنس هنا بالآيات الست التي ورد فيها لفظ «البكم» حيث يتبين فيها جميعاً أن قيمة النطق ، أو السمع والبصر ، ليست في آلية هذه الأجهزة العضوية ..

فالحيوان في عمومه المطلق ، مزود كذلك بألسن ، وآذان وعيون ، وإنما مناطها في أن يكون منطق الإنساني بياناً ، وسمعه وعياً وإدراكاً ، وبصره تمييزاً وهُدى ، وإلا مُسخت إنسانية الإنسان فهبط إلى دونية الدواب العجماء :

«لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا

يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »
(الأعراف ١٧٩ :)

«ومثلُ الذين كفروا كمثلِ الذي ينعقُ بما لا يسمعُ إلا دعاءً ونداءً ، صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون »

(البقرة : ١٧١)

« والذين كذبوا بآياتنا صُمٌ وبُكْمٌ في الظلمات ».

(الأنعام : ٣٩)

« إن شرَّ الدوابِّ عند اللهِ الصمُ البُكمُ الذين لا يعقلون ».

(الأنفال : ٢٢)

ومعها آيات : البقرة ١٨ ، النحل ٧٦ ، الإسراء ٩٧ .

• • •

وإذا كان البيان في عمومه خاصاً بالإنسان الرشيد المميز الناطق المبين، فإن ارتباطه بمعجزة النبي العربي يتجه به إلى دلالة أخص بالعرب الذين اصطفى الله منهم نبي الإسلام ، وكانوا أول من تلقى آيات معجزته التي استُهلت بآية القراءة والعلم :

«اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ».

والعرب أهل بيان ...

لا يذكر التاريخ أنهم عرفوا فنا غيره من الفنون التي عرفتها شعوب أخرى قديمة ، كالموسيقى والنحت والتصوير والرسم والفن المعماري .

وكان حتماً أن يؤمن العرب برسالة نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، قبل أن يؤمن بها غيرهم من الأمم وليست العربية لغتهم .

لأن العرب بإيمانهم قادرون على أن يحملوا لواء الإسلام وينشروه في الآفاق .

وهم الذين يملكون قبل سواهم ، أن يدركوا إعجاز البيان القرآني .

والقرآن يخاطب العرب بلسانهم ، وقد أخذهم ببيانه المعجز فأسلم منهم من أسلموا بمجرد أن سمعوا كلماتٍ منه ، عن يقين بأنها ليست من قول البشر .

وكفر به كافرون عن عناد وضلال ، فما استطاعوا أن يقولوا فيه إلا أنه قولُ ساحر ، أو شاعر ، أو كاهن .

فكان هذا اعترافاً صريحاً بأن هذا البيان القرآني يملك قلوبهم ويسيطر على وجدانهم سيطرة لا عهد لهم بمثلها إلا في سلطان الشعر وأخذة السحر ونفوذ الكهان .

• • •

ونقول مع ذلك ، إن سلطان البيان لا تنفرد به لغة دون أخرى ، وإنما هو عام في اللغات الإنسانية .

وإذن فليس اختصاص الإنسان بالبيان محدوداً باقتداره عليه دون الحيوان الأعجم ، بل يتسع مفهوم ذلك الاختصاص ، فيشمل انفعال الإنسان بالبيان وتذوقه إياه ، وإدراكه لوقعه المسيطر على منافذ التأثير والوجدان .

وهو أداته في التعبير المبين ، ووسيلته إلى ممارسة قدرته على التفكير وأهليته للتعلم التي استحق بها أن يكون خليفة في الأرض .

obeikandl.com

أمانة الإنسان

« إنا عرَضْنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبيْنَ أن يحْمِلْنها وأشفقْن منها وحملها الإنسانُ إنه كان ظلوماً جهولا ».

(سورة الأحزاب)

obeikandl.com

obeikandl.com

حملُ الإنسان للأمانة ، من أخص ما يميز دلالة الإنسانية في البيان القرآني ، عن الإنسية أو البشرية .

بصريح إسناده إلى «الإنسان» دون الناس ، أو الإنس أو البشر .

وقد ورد لفظ «أمانة» بصيغة المفرد ، في آية كتابة الدَّيْن بسورة البقرة :

« وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ، فإن أمِن بعضُكم بعضاً فليؤدِّ الذي اؤتُمِن أمانته وليتقِّ اللهَ ربه ، ولا تكتموا الشهادةَ ومن يكتمْها فإنه آثمٌ قلبُه ، واللهُ بما تعلمون عليم » ٢٨٣ .

وجاءت «أمانات» جمعاً ، أربعَ مرات ، فيما للهِ والرسولِ أو للناسِ من حقوق .

« إن اللهَ يأمركم أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهلها وإذا حكمتُم بين الناسِ أن تحكموا بالعدل »

(النساء : ٥٨)

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون » .

(الأنفال : ٢٨)

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

(المؤمنون : ٨ ، والمعارج : ٣٢)

وانفردت أمانة الإنسان في آية الأحزاب ، بمجيئها بصيغة المفرد مع التعريف بـ : ال ، على وجه الاختصاص .

فما هذه الأمانة الصعبة التي تصدى الإنسان لحملها وقد أشفقت منها السموات والأرض والجبال ؟

احتلفت الأقوال في تأويلها [1] :

• خصها بعض المفسرين بآدم ، حمل الأمانةَ ثم لم يلبث أن عصى ربَّه فأخرج من الجنة . مع اختلافهم كذلك في تحديد مدة التجربة . فمن قائل :

« فما كان إلا قدر ما بين العصر والليل حتى أصاب الخطيئة »

وآخر يقول :

« فما لبث ما بين الظهر والعصر »

وثالث يقول :

فما مكث إلا قدرَ ما بين العصر إلى غروبِ الشمس » .

مع ما يبدو من حرص القرآن الكريم على عدم التعلق بمثل هذه الجزئيات التي لا شأن لها بجوهر الحادثِ ومناط العبرة !-

• وخصَّها بعضهم بقابيل : ائتمنه أبوه آدم على أهله وولده ، فما لبث أن خان الأمانةَ وقتل أخاه هابيل .

• وقيل : الأمانة الطاعةُ ، والفرائض ، وكلمةُ التوحيد ، والعدالة ، وحروفُ التهجي ، والعقلُ

واختار الطبري في تفسيره ، أن يعم بها جميعَ الأمانات في الدِّين ، وأمانات الناس .

واختار «الراغب الأصفهاني» العقلَ « فإنه الذي تتحصل به معرفةُ

---

١ انظر كل هذه الأقوال والتأويلات في تفسير الطبري : سورة الأحزاب . ولا يكاد ما في التفاسير الأخرى يخرج عنها .

التوحيد وتجري العدالة وتُعلم حروفُ التهجي وكل ما في طوق البشر تعلمه ، وفعلُ ما في طوقهم من الجميل . وبالعقل فُضِّل على كثير من خلقه » [1] .

واختار «الزمخشري» الطاعةَ ، مع تأويل الحملِ في معنى الإباء والنكوص [2] .

• •

ونعرض كل هذه التأويلات على البيان القرآني ، فنرى أن تخصيص الأمانة بآدم مع ربطها بخروجه من الجنة ، يأباه سياق الآية في حمل الإنسانِ الأمانة ، بعمومٍ مُطلقٍ لا يقف عند ابتلاء آدمَ وخروجِه من الجنة .

وأوهى منه ، أن تُخَصَ الأمانة بقابيل ، خان ما ائتمنه عليه أبوه آدم . فالذي في الآية أن اللهَ هو الذي عرض الأمانة ، فحملها الإنسانُ . ولا يمكن أن نضع «آدم» مكان الله — سبحانه — ولا أن نضع «قابيل» مكان الإنسان .

وتأويل الأمانة بعموم الأمانات ، على ما اختار الطبري ، يرده أن الأمانة في آية الأحزاب متميزة بالإفراد والتعريف بـ : ال ، والبيان القرآني حين اتجه إلى التعميم ذكر «أمانات» بصيغة الجمع ، في آيات (المؤمنون ، والمعارج ، والأنفال) .

فعدول القرآن عن صيغة الجمع إلى «الأمانة» مفردة ، لا يسهل معه تأويلها بعموم الأمانات .

---

١ مفردات القرآن : مادة (أمن) .

٢ الكشاف : سورة الأحزاب .

وقصرُ الأمانة على العقل ، كما ذهب الراغب في (المفردات) ينفيه أن العقلَ وإن هدى إلى حمل الأمانة ، فليس مقبولاً أن يكون مرادفاً لها ، في حِسٍّ العربية المرهف الذي يجلوه البيان القرآني .

والقولُ بأن الأمانةَ هي الفرائض الدينية ، يرد عليه أن القرآن جاء برعاية الأمانات إخباراً عن المؤمنين ، في سياق يجمعها مع أداء الفرائض الدينية :

« الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم للزكاة فاعلون ...

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون » .

(المؤمنون ١ : ٩)

ومثلها سياق آية المعارج في الأمانات :

« إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ...

إلى قوله تعالى :

«والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون ».

(١٩ : ٣٤)

فشهد ذلك بأن الأمانات المرعية ، شيء غير الفرائض الدينية المؤداة : صلاة وزكاة وإيماناً بالله وباليوم الآخر ، واجتناباً لكبائر الإثم والفواحش .

وإذ نص القرآن الكريم في مواضع ورود أمانة وأمانات ، على ما هو لله منها وما هو للناس ، فقد تعين أن إفراد «الأمانة» — معرفة بـ : ال ، في

آية الأحزاب ، والتصريح بحمل الإنسان لها ، في العموم المطلق للفظ الإنسان ، ومنه المؤمن وغير المؤمن ، تعين أن تكون الأمانة في مثل هذا السياق اختصاصاً مميزاً ، يتصدى لحملها الإنسان .

وتأويل « الأمانة » بالطاعة ، على ما ذهب إليه بعضهم ، يرد عليه مثلُ ما يرد على تأويلها بالفرائض الدينية .

ثم نحتاج بعد ذلك إلى تدبر لمعنى الحمل الذي أولوه بالخيانة ليستقيم لهم مذهبهم في تفسير الأمانة بالطاعة ، أي أن الإنسان بحمله الأمانةَ التي هي الطاعة ، قد تخلى عنها وخانها .

ونص عبارة القاموس : « وقوله تعالى : فأبين أن يحملنها ... وحملها الإنسان : أن يَخُنّها وخانها الإنسان ، والإنسان هنا الكافر المنافق ».

ثم سكت صاحب القاموس فلم يوضح لنا كيف يكون الحملُ في اللغة خيانةً للأمانة ، وإباءُ الحملِ وفاءً بحقها .

و «الزمخشري» في الكشاف قال ما نصه :

« معنى أبين أن يحملنها وحملها الإنسان : فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها ».

ثم استطرد يشرح هذا الوجه من تأويل حمل الأمانة بإباء الطاعة ، فكانت خلاصة كلامه فيه أن الإنسان وحده هو الذي أطاق حملَ الأمانة فلم يؤدها ، على حين لم تطقها السموات والأرض والجبال فأدينها طاعةً وامتثالاً لأمر الخالق ، وتخلصن من عبء حملها .

ومع شعوري بالجفوة تجاه هذا التأويل ، أتوقف عن الحكم عليه حتى أعرضه في أناة على كل المواضع التي جاء فيها «الحمل» بمختلف صيغه في الكتاب المحكم ، لأرى ما إذا كان أي موضع منها يقبل تأويل الحمل بالخيانة والتخلي عن المحمول وعدم الوفاء بحقه ؟

وقد وردت مادة «حمل» في القرآن الكريم في ثلاثة وستين موضعاً ، منها سبعة عشر في حمل الأجنة» ، مثل آيات :

مريم ٢٢ : « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ».

لقمان ١٤ : « ووصّينا الإنسانَ بوالديه حملتْه أمُّه وهْناً على وهنٍ »

فاطر ١١ : « وما تحملُ من أنثى ولا تضعُ إلا بعلمِه » .

ومعها : فصلت ٤٧

الطلاق ٤ : « وأولاتُ الأحمالِ أجلُهنَّ أن يضعن حملَهن »

ولا يمكن بأي وجه ، أن نؤول حملَ الأمهاتِ بخيانة أجنتِهن التخلي عنها .

واستعمل القرآن الكريم الحملَ نحو ست وعشرين مرة ، بمعناه الحسي والمعهود المألوف ، في مثل آيات الطوفان :

« كذّبت قبلَهم قومُ نوح فكذبوا عبدَنا وقالوا مجنونٌ وازدُجِر . فدعا ربّه أني مغلوب فانتصِرْ . ففتحنا أبوابَ السماء بماءٍ مُنهمِر . وفجّرنا الأرضَ عُيوناً فالتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدِرَ . وحَملناه على ذاتِ ألواح ودُسُر ».

(القمر ٩ : ١٣)

« قلنا احمِلْ فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلَك إلاّ من سبق القولُ ، ومَن آمنَ ، وما آمن معه إلا قليلٌ »

(هود : ٤٠)

« وآيةٌ لهم أنا حَملنا ذريتَهم في الفُلْكِ المشحون »

(يس : ٤١)

« ذريةَ مَن حملنا مع نوح ، إنه كان عبداً شكوراً ».

(الإسراء : ٣)

« إنا لمّا طغى الماءُ حملناكم في الجارية »
(الحاقة : ١١)

ومثل آيات :

يوسف ٧٢ : « ولِمَن جاء به حِملُ بَعير ».

مريم ٢٧ : « فأتتْ به قومَها تحمِلهُ قالوا يا مريمُ لقد جئتِ شيئاً فَريّا »

الإسراء ٧٠ : « ولقد كرَّمنا بني آدمَ وحملناهم في البر والبحر ».

الأنعام ٤٢ : « ومن الأنعام حَمولةً وفرشاً ».

النحل ٧ : « وتحمِلُ اثقالَكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفُسِ »

ولا يمكن أن يؤُول الحملُ في أي موضع منها ، بالنكوص عن العبء أو خيانة المحمول والتخلي عنه !

وجاءت المادة في الحمل المعنوي ، في نحو عشرين موضعاً ، مثل آيات :

البقرة ٢٨٦ : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعَها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربّنا لا تؤاخذْنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حملتَه على الذين من قبلنا ، ربّنا ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقةَ لنا به ... »

طه ١٠١ : « كذلك نَقُصُّ عليك من أنباءِ ما قد سبق ، وقد آتيناكَ من لدُنا ذكراً . مَن أعرض عنه فإنه يحملُ يومَ القيامةِ وِزراً . خالدين فيه وساء لهم يومَ القيامة حِملا ».

طه ١١١ : « وعنَت الوجوهُ للحيِّ القيوم وقد خاب مَن حمل ظلماً »

النساء ١١٢ : « ومَن يَكسِبْ خطيئةً أو إثماً ثم يَرمِ به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً »

العنكبوت ١٢،١٣ : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبِعوا سبيلَنا ولنحملْ خطاياكم وما هُم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون . وليَحمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليُسألُنَّ يوم القيامة عما كانو يفترون »

النحل ٢٥ : « ليحملوا أوزارَهم كاملة يومَ القيامة ومن أوزارِ الذين يُضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يَزِرون » .

فهل يسوغ لنا أن نتأول حمل الوزر والإصر والخطيئة والبهتان والإثم ، بأنه نكوص عن ذلك كله ورفض لاحتمال تبعته ، فيسوغ لنا ، مِن ثَم ، أن نتأول حمل الخيانة بالتخلي عنها وخيانتها ؟!

ولنتدبر آية الجمعة في اليهود :

« مثلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يَحملوها كمثَلِ الحمارِ يَحمل أسفاراً »

لو ذهبنا إلى تأويل حملِ الإنسان الأمانةَ بأنه خيانة لها ، وتأويل إباء السموات والأرض والجبال أن يحملنها بالوفاء بحقها ، لجاز القولُ في آية الجمعة — والقرآنُ يفسر بعضه بعضاً — إن نفى حمل اليهود للتوراة وفاء منهم بحقها ! فهل هذا هو مَثَل الحمار يحمل أسفاراً ؟ « بئس مثلُ الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين »

ولننظر كذلك في آية النور ٥٤ :

« قل أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ فإن تولَّوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم »

إنه سياق واحد في الآية الواحدة ، والاختلاف بين الموضعين ، ليس في دلالة لفظ التحميل ، وإنما هو التفاوت بين ما حُمل الرسول وما حُمل الذين تولوا .

فإن قال قائلون إن الحمل في آية الأمانة مختلف عن الحمل في كل الآيات التي ورد فيها في القرآن الكريم ، فإن منهجنا يأبى علينا أن نحمل تبعة تفسير القرآن بغير القرآن ، أو توجيه لفظ منه دون تتبع سياقه في كل مواضع وروده بالكتاب المحكم ، كيلا نتورط في شبهة وجود اختلاف فيه :

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

• • •

وعلى هذا المنهج ، أستبعد كذلك تأويلَ «الإنسان» في آية الأحزاب بالكافر أو المنافق ، فلا وجه إطلاقاً لهذا التخصيص ، والبيانُ القرآني يقضي بأنه مطلق الإنسان ، على مألوفِ استعمال الكتاب المحكم للفظ « الإنسان» معرفاً بـِ : ال ، لعموم جنسه .

الإنسان هو الذي تصدى لحمل الأمانة ، وقد أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال .

وواضح أن عرض هذه الأمانة عليهن ، وإشفاقهن منها وإباءهن

أن يحملنها ، إنما هو على سبيل المجاز ، بياناً لصعوبة الأمانة وباهظ عبئها .

وليست « الجمادية » في السموات والأرض والجبال هي مناط العبرة في العجز عن حمل الأمانة ، كما يذهب متأولون ، وإنما مناطها ما نرى من ضخامة أجرامها وطاقتها على الحمل والتحمل : فالسموات الرحبة المرفوعة بغير عَمَدٍ ترونها ، والأرض التي تحمل صلبَ الصخورِ وشاهقَ الجبال والمباني وملايين المخلوقات ، والجبالُ التي تأخذ الأبصار بشموخها وصلابتها ورسوّها ورسوخها ، هذه جميعاً أشفقت من الأمانة وأبتْ حملَها ، وحملها هذا الإنسانُ ، وأين هو في ضآلة جِرمه ومحدودِ طاقته ، بالقياس إلى السموات والأرض والجبال ؟

* * *

أفلا تكون هذه «الأمانة» هي الابتلاء بتبعة التكليف وحرية الإرادة ومسئولية الاختيار ؟

بلى !

فكل الكائنات عدا الإنسان ، مسيّرةٌ بمقتضى سنن كونية تخضع لها على وجه التسخير والامتثال ، دون تحمل لتبعة ما تعمل : فلو أن السموات قذفت الأرض بالصواعق ، وأمسكت ماء السحب فأتلفت الزرع والضرع من جدب وظمأ ؛ أو لو أنها جادت بالغيث فأحيت الأرض من بعد موتها ... لما كانت بحيث تُسأل عن شيء من هذا ومثله .

ولو أن الأرض زُلزلت فدمّرت الأحياء والقرى ، وقذفت من جوفها بالحمم واللهب فأهلكت وشردت ؛ أو لو أنها أخرجت من باطنها ثمين المعادن والزبوت فعمّرتْ وأغنتْ ...

ولو أن الجبال تهاوت وتصدّعت فقضت على بلدان كانت آمنة مطمئنة ...

لما حوسبت السموات والأرض والجبال على خير أو شر !

الإنسان وحده هو المسئول عن عمله ، المحاسَب عليه ثواباً وعقاباً ، لا يحمل أحدٌ عنه تبعةَ مسعاه ، ولا يفوتُ بغير جزاء ...

• • •

هذه هي الأمانة فيما اطمأن إليه ، بعد طولِ تأملِ لآيتِها في البيان القرآني .

حمَلَها الإنسان ، مطلق الإنسان ، تحقيقاً لذاته وممارسة لخلافته في الأرض ، ولو كان قد قَبِلَ التسخيرَ لأعفاه من المسئولية والحساب ، لكنه أبى إلا أن يحتمل أمانةَ إنسانيته ، وإن جهل خطرَها وقصّر في الوفاء التامّ بكل حقوقها « وكان الإنسانُ ظلوماً جهولا ».

وإيثارُ لفظِ الأمانة هنا ، على غيرها من ألفاظٍ يُظَن أنها مرادفة لها ، كالتكليف والمسئولية والتبعة والعهد ...

هذا الإيثار ملحوظٌ فيه حِسُّ العربية الأصيل للأمانة ، بما تعني من أمن الخوف وحذر الخيانة .

فالإنسان فيما يحمل من أمانة إنسانيته ، يخاف الخيانةَ وهو خاضع لرقابة خالقه ، مسئول أمام ضميره . ومِن هنا كانت مشقة الأمانة وصعوبتها إذ تلوح الفرص للإنسان مغرية بالنفاق تهرباً من المسئولية أمام الناس ، ومن ثم يتعرض لامتحان عسير وبلاء مبين .

والإيمان من الأمانة ، لكنه أخص منها بمجال العقيدة ، على حين تتسع دلالة الأمانة لمعنويات الإنسانية ، ومسئوليتها التي تأبى التسخير

وتتحمل تبعة الحرية والاختيار . وما أشقها من تبعة قلَّ فينا من يُقدِّر ثقلَ حملِها ويدرك صعوبة الابتلاء بها ، وإن الإنسان لظلوم جهول !

وقد أشفقت منها السموات والأرض والجبال ، وأعفاها التسخيرُ من المسئولية والحساب ، فما عادت بحيث توصف بجهل وظلم ، أو تُمتحن بنفاق وشرك ، أو تتعرض لجزاء من عقاب أو ثواب ...

ولا يعني قصورُ إدراك الإنسان لتبعة الأمانة ، أو تقصيرُه في أداء حقها على الوجه الأكمل ، أن يُؤثِر السلامةَ فيشفق من حمل الأمانة ويأباها ، بل لا بأس عليه من مخاطر الابتلاء وعثرات الجهل ، فإنما العبرة بصدق النية ويقظة الضمير وصحة الإيمان . ومجال التوبة مفتوح أمام الإنسان الذي يتعثر ويخطىء فتصهره التجربة ويهتدي بالخطأ إلى طريق الحق .

والإثم كل الإثم ، على من يخون الأمانة عمداً ، مجاهراً بالخيانة أو منافقاً يتقي حساب الناس ولا يتقي حسابَ الله والنفس اللوامة .

ومن هنا كان حمل الأمانة ابتلاء للإنسان :

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا . ليعذبَ اللهُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيماً ».

• • •

وليس من العسير أن نرىٰ في حمل الإنسان الأمانة ، على هذا الوجه ، أثراً حتمياً للمكانة التي أقرها له الدين بخلافته في الأرض ، بما تقتضيه هذه الخلافة من حق التصرف وأهلية المسئولية ، وبما تلقيه على عقل الإنسان وضميره من تبعات جسام ، أُعفِيتْ منها كلُّ الكائنات الأخرى .

لكن الوضع يظل غيرَ مفهوم ، إذا لم يقم على حق مقرر للإنسان في الحرية ، وهذه هي القضية التي نطيل التأمل فيها الآن ، في هَدْي القرآن الكريم .

obeikandl.com

حُـرّيَّـة الإنْسَـان

- الحرية ، والرق
- حرية العقيدة
- حرية العقل والرأي
- حرية الإرادة

obeikandl.com

obeikandl.com

مضى القول في الأمانة التي حملها الإنسان بمقتضى خلافته في الأرض ، وأن هذا الوضع لا يمكن أن يُفهم أو يُتصور ، إذا لم يقم على حق أصيل مقرر في الحرية الإنسانية .

وإذا كان من المتعذر تناول قضية الحرية في أفقها العام الذي يلم بكل الجهود والدراسات فيها ، قديمة وحديثة ، شرقية وغربية .

فكذلك يبدو من الصعب أن أتناولها في دائرة الإسلامية التي جمعت رصيداً من بحوث الفقهاء والفلاسفة وأعلام الفكر الإسلامي ، ومن ثم أقتصر على تناول القضية فيما يهدى إليه القرآن الكريم من جوهر الفكرة الإسلامية عن الحرية .

• • •

والقضية ذات شُعب ، منها ما يتصل بالحرية العامة المناقضة للرق ، ثم حرية الاعتقاد ، وحرية الفكر والرأي ، وحرية الإرادة .

وإيرادُها على هذا الترتيب ، قد يبدو ملحوظاً فيه أن حرية الإنسان المناقضة للرق ، هي أدنى المراتب التي تتقرر للإنسان بمجرد مولده إنساناً ، تليها حرية الاعتقاد وحرية الفكر ، وهما من لوازم إنسانيته وتكاليف رُشدِه ، ثم حرية الإرادة وهي أصعب عنصر من عناصر القضية ، وإن كانت الأساسَ الذي يقوم عليه حملُ الإنسان أمانته ، وأهليتُه للخلافة في الأرض .

والحقُّ أن الحرية كلٌّ لا يتجزأ ، فإن تكن البشرية قد استطاعت بعد

نضالٍ طويل أن تعلن تحرر الإنسان من أغلال الرق المهدر للآدمية ، فلا يزال عليها أن تناضل طويلاً من أجل استكمال وجودها الحر ، بتحرير العقيدة والعقل والإرادة .

مدركةً أن حرية الإنسان كلٌ لا يتجزأ ، وأي مساس بجانب منها عدوان على شرفِ الإنسان وتعطيلٌ لمسئولية أمانته .

ثم إن عليها أن تناضل طويلاً ، لتحرير مفهوم الحرية من شوائب المسخ ، كيلا يلتبس بالفوضى والتحلل ، ولكي يرسخ الإيمان بأن هذه الحرية ليست منحة وعطاء ، وإنما هي فرض مقرر على كل قادر على حتمال تبعاتها الجسام ، أهل للاضطلاع بمسئوليتها الباهظة .

الحُرّيّة.. والـرّق

« ما كان لبشر أن يؤتيَه اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ ، ثم يقول للناسِ كونوا عباداً لي من دونِ الله »

(سورة آل عمران)

obeikandl.com

obeikandl.com

وحق الحرية من الرق يتقرر أصلاً ، بأن جوهر الدين كله هو عبادة الله وحده لا نشرك بعبادته أحدا .

وإذا كانت البشرية المتدينة قد تورطت قبل الإسلام في شبهة الشرك بتأليهها الرسل ، أثراً من ميراثها المتخلف من عصر عبادة الأبطال البديل لعصرِ تعدُّدِ الآلهة ، فإن كتاب الإسلام فيما استصفى من جوهر العقيدة في الرسالات التي جاء خاتماً ومصدقاً لها ، قد تشدد في تقرير المساواة التامة المطلقة بين البشر ؛ فهم جميعاً سواء ، خلقوا من نفس واحدة .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء .... »

(النساء : ١)

— وانظر معها آيات : الأنعام ٩٨ ، الأعراف ١٨٩ ، الزمر ٦ .

كما تتقرر البشرية بين الناس جميعاً على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة ، في عدد من الآيات المحكمات ، نقلناها في الحديث عن بشرية الرسل .

وبهذه المساواة بين الناس ، والمماثلة في بشريتهم جميعاً ، لا يدع الإسلام سبيلاً إلى أن يكون لبشرٍ حقٌّ استرقاق بشرٍ مثله ، ويحمي الإنسانيةَ من رواسب ميراثها القديم في عبادة المخلوقين ، وإنما العبودية لله وحده .

وليس لأحد — من كان — أن ينتحلَ صفة الربوبية فيستعبد الناس وقد خلقهم اللهُ من نفس واحدة ، وهم جميعاً عباد الله .

وليس لقوم أو جنس أن يزعموا الحق في استعباد قوم غيرهم بدعوى تفاضل بالقوة أو التمدن أو الثراء ، أو بدعوى حق إلهي مزعوم في أنهم الصفوة المختارة من خلق الله ، وهي دعوى انتحلها من قديم من زعموا أنهم شعب الله المختار ، ونقضها كتاب الإسلام بآية المائدة ١٨ :

« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممن خلقَ ...»

كما أسقطَ التفاضلَ بين الأفراد والشعوب بغيرِ التقوى والعمل الصالح :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارَفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ».

(الحجرات : ١٣)

• • •

ومع هذا التقرير لحق الإنسان في الحرية ، لا يعبد إلا خالقه ، واجه الإسلام في زمن المبعث ، مجتمعاً متصدعاً بطبقية ضارية ، عمادُها استرقاق الأرستقراطية المعتزة بجاهها ومالها ، للموالي من الأسرى والعبيد الذين لا يجري في عروقهم الدم العربي الخالص . وبدت المشكلة عَصيَّةً على الحلِّ الواقعي الذي يقوض بناء اجتماعياً رسخته تقاليد موروثة وأعراف مقررة . ومع ذلك ، لم يكد نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام يجهر بدعوته ويتلو آيات من وحي ربه ، حتى أدركت الطبقة المستضعفة أن الدين الجديد هو ملاذها من محنة الرق الذي أهدر إنسانيتها .

• • •

ومؤرخو الحضارة الإنسانية ، قد شهدوا للإسلام بأن وضع الرق فيه كان أهون من وضعه لدى أمم سابقة ، كالرومان واليونان والفرس . غير أني لا ألوذ بشيء من هذه المقارنة في الحديث عن القرآن والرق ، وإنما ألوذ بموقف القرآن تجاه هذه المأساة البشعة ، وأستطيع أن أقول وأنا مطمئنة تماماً ، إن كتاب الإسلام لم يكتف في مواجهة المأساة بتقرير المساواة بين الناس جميعاً وتحريم العبودية لغير الله وحده ، وهذا هو جوهر الدين كله .

وإنما عمد إلى إغلاق المنفذ الجديد من الاسترقاق من ناحية ، وإلى تصفية الرق القائم ، في عصر المبعث ، من ناحية أخرى .

فأما إغلاقُ المنفذِ للرق ، فالمعروف أن أسرى الحرب والقتال كانوا المورِدَ الأكبر للرقيق . وتشهد آية محمد ، أن كتاب الإسلام لا يجيز الأسرَ في قتال الكفار ، وإنما يخيِّر المسلمين حين النصر ، بين أمرين لا ثالث لهما : المَنِّ على الأسرى ، أو قبولِ الفدية فيهم :

« فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشُدُّوا الوثاقَ فإما مَنّاً بعدُ وإما فداءً حتى تضعَ الحربُ أوزارها ، ذلك ولو يشاءُ اللهُ لانتصر منهم ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض ، والذين قُتلوا في سبيل اللهِ فلن يُضِلَّ أعمالَهم »

والآية نزلت في العهد المدني الذي اتجهت فيه عناية القرآن إلى التشريع ، بعد أن اتجهت في العهد المكي إلى تقرير أصول الدعوة وجوهر الدين .

ولا أقف هنا عند قولٍ لبعض المفسرين بأن الآية نُسِخَتْ ، مع

أن من أئمة المفسرين السابقين كالطبري ، من قرر أن الآية «محكمة لم تنسخ » .

وإذ قال كتاب الإسلام في أسرى الحرب . « فإمّا مَنّاً بعدُ وإمّا فداء».

ولم يقل الثالثة : وإما أسراً واسترقاقاً .

فقد سد بذلك المنفذ الأكبر للرق ، وأعفى الإنسانية من مورد له جديد متصل ...

وفي تصفية الرق القائم ، بدأ القرآن في العهد المكي المبكر ، فحض الإنسان على اقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنساني الحر . ونص على أن المرحلة الأولى لاقتحام العقبة ، هي فك الرقاب المصفّدة بأغلال الرق ، دون أن يقيِّدَ هذا الفكَّ بكفارة من ذنب . فذلك قوله تعالى في «سورة البلد» التي تستهل باللفت إلى أوضاع اجتماعية مريضة فاسدة في البلد الحرام ، توارثها خلف عن سلف ، وأسلمها والد إلى ولد ، ثم بيان غرور الإنسان بمالِه وقوته ، وقد تهيأ له من وسائل التمييز والبصر ما يهديه إلى طريقي الخير والشر :

«فلا اقتحم العقبةَ . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ».

هذه هي العقبة التي ينبغي أن يقتحمها الإنسان احتمالاً لأمانة إنسانيته قد بينها القرآن الكريم على ترتيب درجاتها ومراحلها : تحرير الرقاب ، والتكافل الاجتماعي ، ثم الإيمان بالله وأداء حق الجماعة في التواصي بالصبر على تكاليف الإنسانية ، والتواصي بالمرحمة .

ومن المفسرين من توقفوا عند هذا الترتيب في آيات العقبة ، فلم يطمئنوا إلى صريح سياق النص ، والإيمانُ فيه يأتي بعد فكّ رقبةٍ وإطعامِ يتيمٍ ومسكين . وذهبوا مذاهبَ شتى في صرف «ثم» عن معناها اللغوي [1] ...

وسياق الآيات صريح في تقديم «فك رقبة» ويؤنس إليه ما في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :

«أرأيتَ الذي يُكذِّب بالدين . فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم . ولا يَحُضُّ على طعام المسكين . فويلٌ للمُصَلِّينَ . الذين هم عن صلاتِهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون ».

ومثل سورتي التكاثر والهمزة ، وسورة العصر التي تأتي تكاليف الإنسان فيها ومسئوليته الاجتماعية ، قرين بالإيمان بالله . وكلها سور مكية .

ثم في العهد المدني الذي اتجهت فيه العناية إلى التشريع ، أخذ وضع الرق من هذه العناية ما يؤكد حرص الإسلام على تصفية الرق القائم .

وقد بدأ العهد المدني بسورة البقرة وفيها آية البر :

«ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ، ولكن البرَّ من آمن بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتى المالَ على حبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلين وفي الرقاب . وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفون بعهدِهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحينَ البأس ، أولئك الذين صَدقوا وأولئك هم المتقون ».

---

١ انظر هذه التأويلات ومناقشتي لها في تفسير سورة البلد من كتاب (التفسير البياني للقرآن الكريم) الجزء الأول ، ط المعارف بالقاهرة .

ومعه : « سر الحرف » من كتاب (الإعجاز البياني) ، ط دار المعارف ١٩٧١ .

ثم حدد كتابُ الإسلام مصارفَ الصدقات – وهي مصدر الإيراد لبيت المال – فجعلها ثمانية ، من بينها تحرير الرقاب :

«إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضةً من الله والله عليم حكيم » .

(التوبة : ٦٠)

وفرض الإسلام على المؤمن ، تحريرَ رقبةٍ كفارةً لعدد من الذنوب :

الحلف في الإيمان : المائدة ٨٩

والقتل الخطأ : النساء ٩٢

والظِّهار : المجادلة ٣

والبيان القرآني ، حين يتحدث عن تحرير العبيد فيذكر الرقاب بصيغة الجمع ، فمسئولية التحرير فيها على الجماعة وولي الأمر ، والعبء فيها على المال العام للمسلمين .

أما حين يستعمل «الرقبة» بصيغة المفردَ ، فهذه هي مسئولية الإنسان فرداً ، إما احتمالاً لأمانة إنسانيته واقتحاماً للعقبة في سبيل تحقيق الوجود الحر ؛ (سورة البلد)، وإما كفارة عن ذنب . يطرد ذلك ولا يتخلف حيثما استعمل القرآن لفظ رقبة في تحرير العبيد .

وفي هذا الاستقراء ، إيذان صريح بأن كتاب الإسلام في تصفيته لوضع الرقِ القائم عصر نزوله ، ألقى على الإنسان تبعته من هذا التكليف فترك الحالاتِ الفرديةَ تُصفّى عن طريق الأفراد ، أما الرقيق من حيث هم طبقةٌ في المجتمع ، فألقى تبعة تحريرهم وفك رقابهم على ولاة الأمر ، والعبء على بيت المال .

• • •

لي إذن أن أقرر :

أن الإسلام من حيث المبدأ ، نقض الرقَّ أساساً ، بتحريم عبودية الإنسان لغير خالقه .

وفيما يتصل بالوضع الذي كان قائماً ، سدَّ البابَ الذي يدخل منه الرق ، بالنصِّ على التخيير في أسرى الحرب بين المن والفداء . ثم عمد إلى تصفية الرقيق ، بإلزام بيت المال بتحرير الرقاب ، من حيث هي طبقة ، وتشريع فك الرقبة في الحالات الفردية ، كفارة عن عدد من الذنوب منصوص عليها في كتاب الإسلام .

كما شرع المكاتبة ، منفذاً آخر لتصفية الرق القائم ، فإذا رغب العبد إلى سيده في أن يحرره نظيرَ مبلغ من المال يكتبُه العبدُ على نفسه ، وجب شرعاً أن يجاب إلى ما ابتغى ، وعلى الذين آتاهم الله من ماله ، أن يؤتوا راغبي الحرية من مال الله ، ليعينوهم على فك رقابهم :

« ... والذين يبتغون الكتابَ مما ملكتْ أيمانُكم فكاتِبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم .. »

(النور : ٣٣)

وفي النص على أن المالَ مالُ الله ، ما يفسح المجال أمام الإنسانية المتدينة ، لحل مشكلة المال التي هي عصب المذاهب المعاصرة .

• • •

ويلحظ في البيان القرآني ، أنه وإن استعمل لفظ «عبد» للرقيق في آية البقرة :

« ولعبدٌ مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ».

فقد استعمل اللفظ نفسه لأفضل الناس ، وهم الأنبياء وصفوة المؤمنين :

نوح : « كان عبداً شكوراً ».

وسليمان : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ».

وأيوب : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسّني الشيطان بنُصْب وعذاب ».

وابن مريم : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » .

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ».

ومحمد : « وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لُبدا » .

ولم يستعمل القرآن لفظ «العبيد» في الرقيق ، وهي الصيغة الخاصة بجمع عبد ، وإنما يأتي لفظ العبيد للمخلوقين «وما ربك بظلام للعبيد» (١٨٢ آل‌عمران ، ٥١ الأنفال ، ١٠ الحج ، ٤٦ فصلت ، ٢٩ ق)

فكأن القرآن قد تحاشى تخصيص «العبيد» للرقيق ، واستعمل في‌جمعهم صيغة «عباد» في آية النور ٣٢ :

«وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادِكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراءَ يُغنهم الله من فضله والله واسع عليم ».

وهذه الصيغة «عباد» تأتي كذلك في البيان القرآني ، للصفوة من عباده تعالى ، من ملائكة وأنبياء وعلماء ومؤمنين أتقياء .

وهو ملحظ كريم لا يفوت من ينظر في موقف القرآن من الرق ، بعد الذي ذكرنا من نقضه مبدئياً بتحريم العبودية لغير الله ، وما قدمنا من سده لمورد الرقيق وتصفيته للقائم منه .

وإلى أن تتم التصفية ، شرّع القرآن الأحكام الخاصة بالعبادِ والإماء ، ممن يفوتهم فكُّ رقابهم . لئلا يُتركوا للهوى والهوان .

• • •

وإذا كان الاسترقاق بقي في المجتمع الإسلامي ، على عهد الرسول والصحابة ، فلست أشك ، بما أعي من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين ، أن الرق كان في طريقه إلى التصفية ، لولا ما طرأ على الأمة الإسلامية ، ابتداءً من العصر الأموي ، من ظروفٍ وأوضاع ضيعتْ على الإنسانية تلك الفرصة التي أتاحها لها كتابُ الإسلام ، لتخليصها من مهانة الرق .

obeikandl.com

حُرِّيَّةُ العَقِيدَة

« ولو شاء ربك لآمنَ مَن في الأرضِ كلّهم
جميعاً ، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

(سورة يونس)

« لا إكراهَ في الدينِ قد تبيّنَ الرُّشْدُ من الغَيّ »

(سورة البقرة) .

obeikandl.com

obeikandl.com

قضية الصراع الديني والخصومة المذهبية ، قديمة موغلة في أعماق الزمن ، تلقاها عصرنا فيما تلقى من تركة العصور الخوالي ، بعد أن تضخم ميراثها من الضحايا والأحقاد . وشهد التاريخ أن البشرية لم تروَّع بمثل ما رُوعت به مما جنى على الناس التعصب الديني والخلاف المذهبي الذي مزق أصحاب الدين الواحد طوائف وشيعاً ، وأوقد بينها نار العداوة والبغضاء !

وتلقى عصرنا مع هذه التركةِ المثقلةِ بالمآسي ، المشحونة بالفواجع ، أملَ الإنسانية المتدينة في التسامح والتقارب بين مختلف الأديان ، تقريراً لحرية العقيدة وتفادياً لمزيد من الضحايا .

وهو أمل استشرف له الإنسان ، منذ جاءته رسالة الإسلام ، ختاماً لرسالات الدين .

• • •

والفكرة العامة عن تسامح الإسلام واحترامه لحرية الاعتقاد والتدين ، لا تكفي لبيان الأفق الرحب العالي الذي استشرف بالإنسانية إليه .

فالحق أن الإسلام في إقراره لحرية التدين ، يفرضها على المؤمنين به تكليفاً ويلزمهم بها ، تجاه غيرهم ، ديناً وعقيدة وسلوكاً ، لا لمجرد التسامح أو المجاملة والمسالمة .

وهو يبدأ أول ما يبدأ ، فيأخذ الرسول الكريم بهذا المبدأ ، اتقاء لما قد يدفعه الإيمان من أخذ الناس قسراً بالدين الحق ، وهو ما يأباه

الإسلام نصّاً وروحاً ، إلزاماً للإنسان بحمل الأمانة ، ولأن العقيدة لا تكون عقيدة حتى تصدر عن اعتقاد ، والإيمان لا يكون إيماناً حتى ينبع من القلب والضمير عن رضى خالص وطمأنينة صادقة . ولا خير في كلمة ينطق بها اللسان زوراً ويكفر بها القلب ، فذلك هو النفاق الذي يعده الإسلام شراً من الكفر الصريح .

وفي العهد المكي نزلت آية يونس ، خطاباً لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام :

« ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ».

(٩٩)

وبعدها ، في مستهل العهد المدني ، نزلت آية البقرة تقرر أصلَ التشريع :

« لا إكراهَ في الدين قد تبين الرشدُ من الغَي »

(٢٥٦)

وهذا الإقرار لحرية الاعتقاد ، يلقي على الإنسان تبعة اختياره ويحمله مسئولية حريته . ومن هنا كان تأكيد القرآن لمهمة الرسول ، وأن ليس عليه إلا أن يبلغ رسالته :

« فإن أسلموا فقد اهتدَوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغُ والله بصير بالعباد » .

(آل عمران : ٢٠)

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونِه من شيء نحن

ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرُسلِ إلا البلاغُ المبين »؟

(النحل : ٣٥)

« فإن توليتُم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين »

(المائدة : ٩٢)

ويتكرر هذا القصر لمهمة الرسول على البلاغ ، في القرآن الكريم ، أكثر من عشر مرات ، محدداً موقفه من المكذبين والمعرضين ، بما يؤصل المبدأ الإسلامي في حرية الاعتقاد :

« فإن أعرضوا فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغُ ...»

(الشورى : ٤٨)

ويقدر القرآن الكريم ما في أخذ الرسول بهذا المبدأ من صعوبة ومشقة، إذ يحزنه عليه الصلاة والسلام الا يؤمن الناس جميعاً بما بُعِثَ به من الدين الحق ، ويضيق صدره بمن يكذبونه ويعرضون عنه .. ولكن هذه المشقة البالغة ليست إلا بعض ما يجب أن يحتمله من أعباء رسالته ، ، وقد أمِر ألا يُكرِه أحداً على الإيمان ، وأن يدعوَ إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادل المرتابين والكفار والمشركين بالتي هي أحسن ، إلا ان يبغوا ويعتدوا ، وقبل أن يشرع القتالُ دفاعاً عن الإسلام ، وإقراراً لحق معتنقيه في حرية العقيدة .

تلقى الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الآيات البينات :

« قلْ يا أيها الكافرون . لا أعبدُ ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما

أعبد . ولا أنا عابدٌ ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينُكم وَلِيَ دينِ »

(الكافرون)

«ولا تَحزنْ عليهم ولا تَكُ في ضيقٍ مما يمكرون »

(النحل : ١٢٧)

«فاصدعْ بما تؤمَرُ وأعرضْ عن المشركين »

(الحجر : ٩٤)

«ولقد نعلمُ أنك يضيقُ صدرُك بما يقولون . فسبِّحْ بحمدِ ربِّك وكن من الساجدين »

(الحجر ٩٧ : ٩٨)

«قد نعلمُ إنه لَيحزُنُك الذي يقولون ، فإنهم لا يُكذبونك ولكنَّ الظالمين بآيات اللهِ يَجحَدون . ولقد كُذبتْ رُسُلٌ من قبلِك فصَبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرُنا . ولا مبدِّل لكلماتِ اللهِ ولقد جاءك من نبأِ المرسَلين . وإن كان كَبُر عليك إعراضُهم فإن استطعتَ أن تبتَغِي نَفَقاً في الأرض أو سُلّماً في السماء فتأتِيَهم بآية ، ولو شاء اللهُ لَجمعهم على الهدَى فلا تكونَنَّ من الجاهلين »

(الأنعام ٣٣ : ٣٥)

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظة والحسنةِ وجادلْهم بالتي هي أحسنُ إن ربّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيلهِ وهو أعلَمُ بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثلِ ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين . واصبِرْ وما صبرُك إلا باللهِ ولا تحزنْ عليهم ولا تكُ في ضيقٍ مما يمكرون » .

(النحل ١٢٥ : ١٢٧) ..

• • •

وننظر في موقف الإسلام من الرسالات الدينية قبله ، فنراه لا يكتفي بالاعتراف لمعتنقيها بحرية التدين ، بل يُلزم المسلمين أن يُقروا بنبوة كل الرسل ، ديناً وعقيدة لا لمجرد التسامح أو المسالمة . كما يُلزمهم أن يؤمنوا بأن الإسلام مصدق لما بين يديه من رسالات الله :

« نَزَّلَ عليك الكتابَ بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديه وأنزل التوراةَ والإنجيلَ مِن قبلُ هدى للناس وأنزل الفرقان ».

(آل عمران ٣ : ٤)

« والذي أوحينا إليكَ من الكتابِ هو الحقُّ مصدِّقاً لما بين يديه ، إن اللهَ بعبادِه لَخبيرٌ بصير ».

(فاطر : ٣١)

« إنا أنزلنا التوراةَ فيها هدى ونور ..»

« وقفّينا على آثارِهم بعيسى بنِ مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيلَ فيه هدى ونور ...»

« وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مصدقاً لما بين يديه من الكتابِ ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل اللهُ ...»

(المائدة ٤٦ : ٤٨)

(وانظر معها آيات : البقرة ٩١ ، ٩٧ والنساء ٤٦ ، والأحقاف ٣٠) .

• • •

ومع اعتراف الإسلام بكل رسالات الدين التي سبقته ، وتقريره أنه مصدق لها ، وتأكيده لمبدأ حرية التدين ...

مع هذا كله ، فإنه في رياضته للبشرية على تحقيق وجودها الأسمى، استشرف بها إلى غاية تبدو بعيدة ، وأفسح لها مجالَ الطموح إلى الوحدة الجامعة ، تلتقي فيها الإنسانية المتدينة على الإيمان بالله ، لا تُفرق بين أحد من رسله .

ولم يأت «الدينُ» في القرآن الكريم ، بصيغة الجمع «أديان» على الاطلاق وإنما هو دين واحد . وقد تعددت رسالاته ورسله . والذي تلقاه خاتم الرسل هو في جوهره ما تلقاه الرسلُ من قبلهُ :

« ما يقالُ لك إلا ما قد قيل للرسلِ من قبلِك »

(فصلت : ٤٣)

« ولا تُجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذي أُنزِل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهُنا وإلهُكم واحدٌ ونحن له مسلمون ».

(العنكبوت : ٤٦)

ثم يبين منهاج الدعوة إلى هذه الوحدة الجامعة ، في مثل هذه الآيات:

« قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ اللهِ ، فإن تَولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ».

« يا أهل الكتابِ لمَ تكفرون بآياتِ اللهِ وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ».

(آل عمران : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١)

• • •

وإذا لم تكن طاقة البشرية فيما مضى قد أسعفت على الاستجابة لتلك الدعوة ، فإن القرآن الكريم لم يرضَ لها واقعَها ، بل أغراها بمثالية رفيعة تظل دائبة السعي نحوها والتطلع إليها .

ومهما تبدُ الغاية بعيدة والمرتقى صعباً ، فإن للإنسانية المتدينة من هدى الإسلام ما يغلب دواعي اليأس والقنوط ، وفيها هذه الآيات التي تلاها خاتم الأنبياء منذ نحو أربعة عشر قرناً من الزمان :

« شرع لكم من الدين ما وَصّى به نوحاً والذي أوحينا إليكَ وما وصيّنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » .

(الشورى : ١٣)

« قل آمنّا بالله وما أُنزِل علينا وما أُنزِل على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربِّهم لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ».

(آل عمران : ٨٤ ومعها آية البقرة : ١٣٦)

« إن الذين يكفرون بالله ورسلِه ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسلِه ، ويقولون نؤمنُ ببعض ونكفرُ ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقّاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسلِه ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورَهم وكان الله غفوراً رحيما ».

(النساء ١٥٠ : ١٥٢)

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كلٌّ آمن بالله

وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المَصير ».

(البقرة : ٢٨٥)

* * *

بمثل ذلك الإصرار ، أكد كتاب الإسلام أن الحقيقة في الدين واحدة يمكن أن يلتقي عندها المتدينون جميعاً فوق أحقاد التعصب وفواصل الخلاف .

وذلك مما يدخل في حساب علم الاجتماع الديني . آيةٌ من آيات عالمية الإسلام وخلوده ...

وقد شُرع القتال في الإسلام ، دفاعاً عن الدين الإسلامي وتأميناً لحق معتنقيه في حرية العقيدة ، وحمايةً لبيوت العبادة على اختلاف الدين ، من أنّ تهدمها الوثنية الكافرة :

« أُذِن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرِجوا من ديارهم بغيرِ حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله . ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرَ فيها اسمُ الله كثيراً ؛ ولينصُرَنّ اللهُ من ينصره إن الله لقويٌّ عزيز . الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكرِ ولله عاقبةُ الأمور ».

(الحج ٣٩ : ٤٠)

والقتال ، دفاعاً عن حرية العقيدة ، لم يبدأ إلا في السنة الثانية للهجرة ، وظلت مع ذلك توجيهات الوحي تحمي نبي الإسلام عليه الصلاة

والسلام والذين آمنوا معه ، من التورط في إكراه غيرهم على الإسلام ، وتأمرهم بمسالمة من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم .

من تلك التوجيهات ، آية الأنفال وهي ثاني سورة نزلت بالمدينة :

« وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل تُرهِبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللهُ يعلمهم ، وما تُنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلْم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم » — ٦١ .

وآية الممتحنة ، وهي مَدنية كذلك نزلت بعد الأحزاب :

« لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدينِ ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتُقسطوا إليهم إن الله يُحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهَروا على إخراجكم أن تَولّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ».

ثم ، في آخر العهد المدني ، قبل أن يختتم الوحي بسورة النصر ، نزلت سورة التوبة وفيها هذا التوجيه القرآني للرسول عليه الصلاة والسلام :

« وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »

* * *

ومن تحرير الإسلام ، ختام الدين ، لعقيدة الإنسان ؛ إبطالُه سلطةَ الكهنوتية التي تسلطت على العقيدة الدينية بالقهر والتحكم ، بما أخذت من صفة الوساطة بين العبد المتدين وخالقه ، وما ادعت من سلطة إلهية تمنح بها صكوك الغفران أو تصدر قرار التكفير والحرمان !

وذلك ما أبطله الإسلام فلم يأذن لأحد أن يتوسط بين العبد وخالقه :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدُون ».

(البقرة : ١٨٦)

« وهو الذي يقبلُ التوبةَ من عبادِه ويعفو عن السيئات ».

(الشورى : ٢٥)

« وإني لغفّار لمن تابَ وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ».

(طه : ٨٢)

كما ليس لأحد أن يوزع بطاقات دخول إلى الجنة والنار ، أو يحدد لمخلوقٍ مثله مكانه في الدار الآخرة . فهو سبحانه الذي يدري أين يضع رحمتَه . والرسولُ المصطفى نفسه لم يكن له شيء من هذه الحقوق الإلهية التي ينتحلها فينا ناسٌ تسلطوا على خلق الله بكهنوتية أبطلها الإسلام .

في مستهل الوحي . نزلت سورة القلم . ثاني السور على المشهور في ترتيب النزول ، وفيها الآية المحكمة :

« إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

وبعدها نزلت آية النجم . خطاباً لخاتم الأنبياء :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرِنا ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا . ذلك مبلغُهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .

وآية النحل ، مكية كذلك :

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي

أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

• • •

ولعل عداء بعض المذاهب المحدثة للدين ، إنما نشأ أصلاً بسبب ما انتحله رجالُ الدين فيهم من سلطة كهنوتية آزرت باسم الدين البغي والاستغلال ، وهادنت الرجعية والفساد والطغيان ، واستنزفت أموال المتدينين الكادحين ، ثمناً للمغفرة أو فدية من غضب الله !

ومن عجب أن حركة الإصلاح الديني التي قام بها «مارتن لوثر» تأثرت بمبادىء الإسلام في مثل إبطال الكهنوتية وتحريمَ صكوك الغفران[1] ، ثم يكون من بيننا من يمارس هذا الحق المزعوم في أمة مسلمة ، فيزعم لنفسه وصاية على الجنة والنار ، وينتحل من سلطة الغفران والحرمان ما استأثر به الله سبحانه ، لم يعطه أحداً من رسله ، فضلاً عن أن يعطيه غيرهم من الناس :

« ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » .

(المائدة : ٤٠)

ويتكرر عقد المغفرة والتعذيب بمشيئة الله في آيات بينات من كتاب الإسلام ، نتلوها نحن المسلمين ونتلو معها من كلمات الله مثل آيات :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ».

(النساء ٤٨ : ١١٦)

---

١ اقرأ في هذا « صلة الإسلام باصلاح المسيحية » وهو بحث قدمه « أستاذنا أمين الخولي »بالألمانية إلى مؤتمر تاريخ الأديان في بروكسل سنة ١٩٣٥ – ونشره الأزهر مترجماً إلى العربية .

« قل يا عباديّ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمةِ الله . إن الله يغفر الذنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ».

(الزمر : ٥٣)

فأنى لأحد أن ينتحل فينا هذا الحق ، وكتاب الإسلام قد رفع عن الإنسان إصرَ تلك الكهنوتية ، تقريراً لحرية عقيدته وضميره وعقله :

« وكذّب به قومك وهو الحق ، قل لستُ عليكم بوكيل ».

«ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل » .

(الأنعام ٦١ : ١٠٧)

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ».

(الزمر : ٤١)

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ، اللهُ حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » .

« فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ».

(الشورى ٦ : ٤٨)

« فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ».

(الغاشية : ٢٢)

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً».

(النساء : ٨٠)

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَميَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ».

(الأنعام : ١٠٤)

• • •

وكتاب الإسلام يمضي في رفض الكهنوتية ، إلى المدى الذي لا يغني فيه استغفار الرسول المصطفى للمشركين والمنافقين من قومه ، كما لم يغن استغفار إبراهيم الخليل لأبيه .

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ».

« ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ؛ فلما تبين له أنه عدوٌّ اللهِ تبرأ منه ، إن إبراهيم لأوّاه حليم ».

(التوبة ٨٠ : ١١٣)

وحق الشفاعة عند الله ، معلق بإذنه تعالى ورضاه ، بصريح الآيات المحكمات .

«... وخَشَعَت الأصواتُ للرحمن فلا تسمع إلا همساً . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ».

(طه : ١٠٩)

« ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون » .

(يونس : ٣)

« قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له . ».

(سبأ : ٢٣)

« وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً ، سبحانه بل عبادٌ مكرَمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يَشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ..»

(الأنبياء : ٢٨)

« له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه » .

(البقرة : ٢٥٥)

فإذا لم يأذن سبحانه . فهيهات لأحدٍ من شفيع ، وهيهات أن تُجديَ شفاعةٌ من دونه :

« قالوا لم نَكُ من المصلين . ولم نَكُ نُطعِمُ المسكينَ . وكنا نخوضُ مع الخائضين . وكنا نُكَذِّب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعُهم شفاعةُ الشافعين ».

(المدثر ٤٣ : ٤٨)

« وأنْذِر به الذين يخافون أن يُحشَروا إلى ربِّهم ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيعٌ لعلهم يتقون ».

(الأنعام : ٥١)

« وذَرِ الذين اتخذوا دينَهم لعباً ولهواً وغرَّتهم الحياةُ الدنيا وذكِّر به أن تُبْسَل نفسٌ بما كسبتْ ليس لها من دون اللهِ ولي ولا شفيع » .

(الأنعام : ٧٠)

« وأنذِرْهم يومَ الآزفةِ إذ القلوبُ لدى الحناجرِ كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »

(غافر : ١٨)

« ما لكم من دونه من وليٍّ ولا شفيعٍ أفلا تتذكرون »
(السجدة : ٤)

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلّةٌ ولا شفاعةٌ ، والكافرون هم الظالمون »
(البقرة : ٢٥٤)

« قلْ للهِ الشفاعةُ جميعاً له ملكُ السموات والأرضِ وإليه تُرجَعون »
(الزمر : ٤٤)

• • •

بكل هذا الإصرار ، أسقط الدينُ ، في ختام رسالاته ، كلَّ وصايةٍ كهنوتية على الإنسان ، تتوسط بينه وبين خالقه أو تُحدد له مكانه من جنة أو جحيم .

سبحانه ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء « إن ربّك هو أعلَمُ بمن ضلَّ عن سبيله . وهو أعلم بمن اهتدى »

• • •

فأين الإنسانية اليوم من مثالية هذا القرآن ؟

بل أين هي من حرية العقيدة التي أقرها وفرضها ، منذ أربعة عشر قرنـــاً ؟

« ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ».

obeikandl.com

حُرِّيَّة العَقْلِ وَالرَّأى

« وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى ،
قال أوَ لم تؤمن قال بلى ولكنْ ليطمئنَّ قلبي » .
(سورة البقرة)

« ولقد صرَّفنا في هذا القرآنِ للناسِ من كلِّ
مَثَلٍ ، وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدلا »
(سورة الكهف)

oberkanal.com

obeikandl.com

لا يمكن أن تمارس حرية العقيدة . بمعزل عن حرية العقـل والرأي ، فلا يكون للانسان أن يجادل فيما لا يقتنع به ، ولا أن يسأل فيما لا يطمئن إليه .

والفكرة الشائعة أن مثل هذا السؤال ، إذا جاز في القضايا الفكرية والعلمية . فليس بجائز في المقررات الدينية التي تقتضي التسليم المطلق . بل إن فينا من يتصورون أن مجرد مناقشة المتدين لأحدٍ من يتكلمون باسم الدين جرأة وضلال . وقد امتُحنت هذه الأمة الإسلامية بمن حجَبوا الدين عن جمهرة الناس ، وصادروا حقهم في مناقشة ما يسمعون . بل قيل فيما قيل : إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقّاً ، إذا جرؤ على التردد في التسليم بكل ما يسمع من تعاليم وتأويلات وتوجيهات يقدمها الذين يتكلمون باسم الإسلام ويدعون لأنفسهم وصاية كهنوتية عليه .

وفينا كتاب الإسلام ، نتدبر آيته المحكمة في إبراهيم عليه السلام ، فنراه وهو المصطفى للنبوة قد أعوزته طمأنينة القلب في كيفية إحياء الله تعالى للموتى ، فسأل ربه أن يريه كي يحيي الموتى ؟

ولم ترعد السماءُ ولا زلزلت الأرض زلزالها ...

ولم يغضب سبحانه على إبراهيم حين سأل ما سأل ، ولا حرمه شرف الاصطفاء للنبوة . بل كانت كلمة الله ردّاً على سؤال إبراهيم :

« أوَلم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ».

وفي جواب إبراهيم اعتراف صريح معلَن ، بأن قلبَه لم يكن مطمئناً، بل أعياه أن يتمثل كيفية إحياء الله الموتى ، فلم يكتم في نفسه ما خامره من قلق ، بل طلب الرؤية والمشاهدة التماساً لطمأنينة القلب ، والراحة من نوازع القلق وهواجس الحيرة ...

وبقيت كلمته عبرة ، وبقي له شرف مكانته عند الله يذكره سبحانه لرسوله خاتم الأنبياء ، بعد تباعد الدهور ومر الأحقاب :

« واذكرْ في الكتابِ إبراهيمَ إنه كان صديقاً نبيّاً ».

(مريم : ٤١)

وخلد على الزمان ، خليلَ الله ..

كما خلدت ملتُه الحنيفية ، مؤيّدَةً برسالة الإسلام ختام الدين .

« ومن أحسنُ ديناً ممّن أسلمَ وجهَه للهِ وهو مُحسِنٌ واتبع ملةَ إبراهيمَ حنيفاً واتخذ اللهُ إبراهيم خليلا ».

(النساء : ١٢٥)

« قل صدق اللهُ ، فاتبعوا ملةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين ».

(آل عمران : ٩٥)

«إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين ».

(النحل : ١٢٠)

وجاهِدوا في اللهِ حقَّ جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدينِ من حَرَجٍ ، ملةَ أبيكم إبراهيمَ ، هو سمّاكم المسلِمين من قبل ... » .

(الحج : ٧٨)

* * *

وقصة اهتداء إبراهيم إلى الحق – فيما تلاها علينا كتاب الإسلام – بدأت بالحيرة ، والشكُّ الذي هو مظهر لرشدِ العقل وحريةِ التفكير . ومن الشك طال تأمله في الكون وإصرارُه على طلب الهدى والتماس اليقين :

« واتلُ عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدوٌّ لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين ...»

(الشعراء ٦٩ : ٧٨)

«... فلما جنّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يَهدني ربي لأكونَنّ من القوم الضالين ، فلما رأى الشمسَ بازغة قال هذا ربي هذا أكبرُ . فلما أفلَتْ قال يا قوم إني بريء ممـــا تشركون . إني وجّهتُ وجهيَ للذي فطر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين » .

(الأنعام ٧٦ : ٧٩)

وهذا هو بعد أن اهتدى إلى خالقه الحق ، المحيي المميت ، لم يزل يجد في نفسه هاجساً من قلق ، فالتمس راحةَ اليقين وطمأنينةالقلب .

دون أن يكون في ذلك ما يلقي أدنى ظلٍّ من شبهة ، على صدقِ إيمانه وعقيدته .

ودون أن يكون فيه ما يقتضي حرمانه من شرف اصطفائه للنبوة !

* * *

فيم قصَّ علينا القرآن الكريم هذه الآيات من نبأ إبراهيم ؟

ليكون لنا منها عبرة وعظة وهدى ، لا لكي نرددها بأفواهنا ، وألبابُنا غافلةٌ عن مغزاها وهداها .

وأزيد الموقف بياناً ، بالحديث عن حرية الرأي ، ومظهرُه حقُّ الجدال في الأمور الدينية وما يتصل بها من أحكام .

والجدالُ في العربية من صيغ المفاعلة ، والأصلُ اللغوي للمادة في استعمالاتها الحسية المادية ، فيه معنى الصلابة . يقال جَدلَ فلاناً إذا صرعه . والجدْل : عنفُ الخصومة في المناقشة . وأكثر ما يستعمل الجدلُ والمجادلةُ في صراع الآراء والأفكار حيث يُحاول كلُّ مجادلٍ أن يفرضَ رأيه ويناضل عنه في صلابة .

وفي القرآن الكريم ، لم يجيء من المادة إلا الفعلُ رباعياً « جادَلَ » خمساً وعشرين مرة . وجاء المصدر منه مرتين بصيغة « جَدَل » وأخريين بصيغة جدال ، ومرة بصيغة مجادلة . والغالب عليها جميعاً أنها في سياق الجدال الديني . ونفهم من آية الكهف ، أن الجدل من خصائص الإنسان ، المميزة له عن غيره من الكائنات :

« ولقد صرَّفنا في هذا القرآنِ للناسِ من كلِّ مَثَلٍ ، وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدلا »

والآية صريحة الدلالة على أن الإنسان لو لم يكن من شأنه الجَدلُ ، لكان حسبه ما جاءه من آياتٍ بيناتٍ فيها تصريف للناسِ من كل مثل .

من هنا ، قدَّر الإسلام وهو دين الفطرة ، طبيعةَ هذا الإنسان التي تختلف عن طبيعة الملائكة وسائر الكائنات ، فلم ينكر عليه الجدالَ إلا أن يكون مماراة فاحشة في الحق الجلي والآيات البينات ، عن عنادٍ ومكابرة ، أو عن إصرار على الجهل والضلال :

« يجادلونك في الحقّ بعدما تبيّن ، كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون » .

(الأنفال : ٦)

« وما نرسِلُ المرسَلين إلا مبشرين ومنذرين ، ويجادلُ الذين كفروا بالباطلِ ليُدحِضوا به الحقّ »

(الكهف : ٥٦)

« وَمِن الناسِ مَن يجادلُ في اللهِ بغيرِ علم ولا هدى ولا كتابٍ منير . ثانيَ عِطْفِه ليُضِلّ عن سبيلِ اللهِ ، له في الدنيا خِزْيٌ ونُذيقُه يومَ القيامةِ عذابَ الحريق . ذلك بما قدّمتْ يداك وأن اللهَ ليس بظلامٍ للعبيد » .

(الحج ٨ : ١٠)

« كذّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ والأحزابُ من بعدِهم ، وهمّتْ كلُّ أمةٍ برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطلِ ليدحِضوا به الحقّ فأخذتُهم ، فكيف كان عقابِ ».

(غافر : ٥)

« إن الذين يجادلون في آياتِ اللهِ بغيرِ سلطانٍ أتاهم إنْ في صدورِهم إلا كِبرٌ ما هم ببالغيه ...»

(غافر : ٥٦)

• • •

أما حين يكون جدال الإنسان عن حاجةٍ إلى الاقتناع ، فمن حقّه أن يُصغَى إليه ويجادَل بالتي هي أحسن ، وبهذا أمِر نبيُّ الإسلام والمسلمون :

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادلْهم بالتي هي أحسنُ ، إن ربّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين».

(النحل : ١٢٥)

« ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهُنا وإلهُكم واحدٌ ونحن له مسلمون » .

(العنكبوت : ٤٦)

وقد يتوهم ناسٌ ، أو يوهمون غيرَهم ، أن الجدالَ في هذا المجال الديني لا يكون إلا من الكفار والمشركين . والحق أن الإسلام أفسح للإنسان ، وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلا ، وجهَ العذرِ حين يكون جدالُه عن رأيٍ حر وفكرٍ حرٍّ ونيةٍ خالصة ، لأن مثل هذا الجدال من لوازم إنسانيته التي حَملَ أمانتها .

وقد جادل إبراهيم عليه السلام ربه في «قوم لوط» استرحاماً ، فلم يسخط عليه الله ، بل عذره سبحانه في حلمه على القوم الفاسقين ، وأمره أن يعرض عن جدال لا جدوى منه بعد أن سبق أمرُ الله فيهم ، وحقَّ عليهم عذابٌ غير مردودٍ بجدالٍ أو استرحام :

« فلما ذهب عن إبراهيمَ الروعُ وجاءته البشرى يجادلُنا في قومِ لوط. إن إبراهيمَ لحليمٌ أواه منيب . يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا إنه قد جاء أمرُ ربِّك وإنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ ».

(هود ٧٤ : ٧٦)

• • •

كذلك جادلت امرأة مسلمة ، رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في زوجها حين ظاهر منها ، فلما لم تجد لدى الرسول ما يفرج كربها اشتكت إلى الله ، فسمع سبحانه قولها ونزلت فيها آيات المجادلة :

« قد سمع اللهُ قولَ التي تجادلُك في زوجِها وتشتكي إلى الله واللهُ يسمعُ تحاورَكما إن اللهَ سميعٌ بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتِهم إنْ أمهاتُهم إلا اللائي ولَدْنهم وإنهم ليقولون مُنكراً من القول وزُورا ...».

(المجادلة ١ : ٢)

• • •

وفي السيرة النبوية خبرٌ مستفيض عن معارضة نفرٍ من الصحابة لصلح الحديبية على شروطه التي أقرها صلى الله عليه وسلم ، وكان من تلك الشروط « أنه مَن أتى محمداً من قريشٍ بغيرِ إذن وليِّه ردَّه إليه ، ومَن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ».

ويروي ابن إسحاق في «السيرة» وابنُ سعد في «الطبقات الكبرى» والطبري في (تاريخه) ما كان من جدال عمر بن الخطاب في شروط هذا الصلح . قالوا إنه لما تم الاتفاق ولم يبق إلا كتابة نص العهد ، وثب « عمر » فأتى أبا بكر الصديق فجادله فيه ، فلما لم يقره أبو بكر على موقفه ، ذهب عمر إلى الرسول فقال :

يا رسول الله ، ألستَ برسول الله ؟

قال : بلى .

قال عمر : أو لسنا بالمسلمين ؟

قال الرسول : بلى .

قال عمر : أو ليسوا بالمشركين ؟

قال الرسول : بلى

عندئذ سأل عمر : فعلامَ نُعطي الدنيَّة في ديننا ؟

وأجاب صلى الله عليه وسلم : أنا عبدُ الله ورسوله ، لن أخالف أمرَه ولن يضيعني .

ولم يسخط الرسول على صاحبه ، ولا أنكر عليه حقَّ الجدال فيما لم يقتنع به . بل لعله صلى الله عليه وسلم قدَّر صلابة موقفه مجادلاً عما يعتقد أنه حق . ثم كان عمر هو الذي راجع نفسه لما تبينت له حكمة ذلك الصلح الذي عدَّه القرآن «فتحاً مبيناً»، ومِثْلُ عمرَ من يبادر فيعترف بالخطأ بمثلِ الشجاعة التي واتته حين جادل عن رأيه في صلابة ولا يخشى لومة لائم .

و «عمر» هو الذي كتب في «رسالة القضاء» إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه أمر القضاء ، ألا يمنعه قضاءٌ قَضَى به ثم راجع فيه نفسَه ، أن يرجعَ عنه « فإن الرجوعَ إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل ».

وهو الذي أصغى إلى من جادلته بالمسجد على مسمع من المسلمين فيما نهى عنه من المغالاة في مهور النساء ، وفيما أعلن من قرارِه أن يأخذ ما زاد على خمسة وعشرين درهماً فيرده على بيت المال .

قال مؤرخوه : فخرجتْ إليه من صفِّ النساء امرأةٌ تقول بأعلى صوتها على سمع الجماعة في المسجد : ليس لك هذا يا عمر !

فلم يزجرها ، بل وقف فسألها : ولم ؟

قالت : لأن الله تعالى يقول :

« وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ».

فرجع أمير المؤمنين إلى المنبر وقال كلمته المشهورة التي بقيت ملء سمع الزمان :

« أصابت امرأة وأخطأ عمر ».

* * *

على أن قضية حرية الرأي والكلمة ، لا تقف في العقيدة الاسلامية عند حق الجدل التماساً لطمأنينة العقل ، بل تقرر كذلك تكليفاً لا يجوز لمؤمن أن يفرط فيه ، وفريضة لا يحل له أن يتخلى عنها أو يتهاون بها .

بمقتضى الاصل الثابت من أصول العقيدة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

(آل عمران : ١٠٤)

وقد جعل الإسلام هذا التكليف مناط خيرية أمته ، بصريح الآية المحكمة :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

(آل عمران : ١١٠)

وحقت اللعنة على الكفار من بني إسرائيل ، بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر

« لُعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »

وفي كتاب الإسلام ، يقترنُ الإيمان بالله بالتواصي بالحق. وذلك ما لا سبيل إليه إذا فرط الانسان في حرية الرأي والكلمة ، فارتد شيطاناً أخرس :

ومن هذه الحرية تأخذ الشهادة بالحق حرمتها في العقيدة الاسلامية ، فلا يحل لمؤمن أن يكتم هذه الشهادة :

« ومن يكتمها فانه آثم قلبه »

وويل لمن يشهدون الزور ..

وويل لمن يخونون امانة الكلمة، ومن يفرطون في تكليف الأمر بالمعروف والتواصى بالحق ، والنهى عن المنكر ...

obeikandl.com

حُرِّيَّة الإرَادَة

« وأنْ ليس للإنسان إلا مـــــا سعى .
وأن سعيَه سوف يُرَى . ثم يُجزاه
الجزاءَ الأوفى . وأنَّ إلى ربِّك المنتهى »
(سورة النجم)

obeikandl.com

obeikandl.com

حرية الأراده ليست في الواقع إلا عنصرا جوهريا من كل ، يعجز هو الحرية الكاملة للإنسان بمقتضى حمله أمانته الصعبة .

وإذا كان شرط التكليف الاختيار – بنص عبارة ابن رشد [1] – فكيف نتصور أن يحتمل الإنسان الرشيد تبعة التكليف إذا فقد الاختيار الذي هو شرطه ؟

• • •

وحين ننظر في موقف القرآن من حرية الإرادة ، نحتاج إلى أن نفرغ أولاً لتدبر آيات قرآنية محكمة ، تأمر بالتوكل على الله وتفرض علينا الإيمان بمشيئته تعالى فينا وإرادته لنا ، وأن ليس لمؤمن أن يقول « إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ».

وهنا تواجهنا المشكلة الكبرى التي لا نعرف مشكلة أخرى حيرت مفكري الإسلام مثلها ، أعني مشكلة الجبر والاختيار .

بل إنها عقدة العقد ، لا في الفكر الإسلامي فحسب ، ولكن في الفكر الإنساني بوجه عام .

لقد أطالت الفرق الإسلامية الجدل في المشكلة ، وكأنها تضرب في متاهة محيرة ، لا مخرج منها ولا مخلص . وكان مدار البحث في البيئة الدينية ، حول علاقة إرادة الإنسان بالقوة الإلهية التي تدبر أمر العالم وتتصرف فيه بحكمتها ، والله عالم بكل شيء ، فعملُ الإنسان إنما يجري على وفق علم الله القديم ، وهو بذلك مجبر لا مخير .

---

١ في كتابه : فصل المقال .

لكن الأديان في الوقت نفسه ، تقرر مسئولية الإنسان عن حسناته وسيئاته ، وبهما يكون الجزاء ثواباً وعقاباً . والله عادل ، ولا يمكن أن يظلم أحداً من عباده وما ظلمهم • ولكن كانوا أنفسهم يظلمون • .

وتوزعوا فِرَقاً شتى :

قالت «الجبرية» بالجبر المطلق ، وأن ليس للإنسان من الأمر شيء ، وإنما هو مسير بقضاء الله وقدره . وساقوا أدلتهم ، من مثل الآيات القرانية :

« ولو شاء اللهُ لجمَعهم على الهدى »

« وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ اللهَ رمى ».

« سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ».

• • •

ورفضت «المعتزلة» هذه الجبرية ، لأنها تلغي الكسب ، وتنفي حكمة التكليف والمسئولية ، وتجر إلى القولِ بأن الإنسان يعاقَب أو يثاب على ما هو مجبور على فعله ، وذلك ينافي عدل الله الثابت عقلاً وشرعاً بنصوص لا تحتمل التأويل . والعدلُ أحدُ أساسين لمذهب المعتزلة : أصحاب التوحيد والعدل .

ومن ثم ذهبوا إلى القول بالاختيار المطلق ، استناداً إلى أدلة عقلية ونصوص شرعية — وهم يثبتون ألا تناقض بين العقل والشرع — وتلوا من الآيات مثل قوله تعالى :

« ولا نكلف نفساً إلا وسعها ، ولدينا كتابٌ ينطق بالحق وهم لا يُظلمون » .

« ولتجزى كلُّ نفس بما كسبت وهم لا يُظلمون ».

« وأنْ ليس للإنسانِ إلا ما سعى . وأن سعيَه سوف يُرى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ».

« من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ».

وأضافوا : إن الجبر إلى جانب مجافاته للعدل الإلهي ومنافاته للتكليف، يجعل اللهَ خالقاً لما يقترف العبدُ من قبائحَ وسيئاتٍ ، واللهُ سبحانه منزه عن ذلك .

• • •

وبين الطرفين المتقابلين ، وقفت فِرقٌ إسلامية أخرى موقفاً وسطاً :

فالشيعة ترى أنه ليس هناك جبر تام ولا اختيار تام ، مع القول بعدل الله [1] .

والأشعرية توسطت كذلك فقالت بأن للإنسان كسباً يثاب به ويعاقب عليه ، والإنسان وكسبُه مخلوقان لله تعالى . ولا وجه عندهم للكلام في عدلِ الله ، لأنه سبحانه حر في مخلوقاته يفعل ما يشاء ، « لا يُسأل عما يفعلُ وهم يسألون ».

وتوشك الأشعرية بهذا أن تكون قد انتهت إلى الجبرية .

• • •

ودخلت الفلسفة الميدان فزادته تعقيداً .

---

١ انظر مقال « الشيعة » للأستاذ محمود شهابي أستاذ الفلسفة الشرقية في كلية الإلهيات بجامعة طهران. وقد نشر المقال في كتاب (الإسلام ، الصراط المستقيم) النسخة العربية ط بيروت ١٩٦١ ، بإشراف مورجان وترجمة الأستاذ عبد الله يعقوب .

وحاول ابن رشد أن يوفق بين الأدلة المتعارضة [1] :

فهو يقدر الجبرَ من ناحية العوامل الخارجية والأحوال النفسية التي تعطل إرادة الإنسان ، كما يقدر الاختيار فيما هو متروك للإنسان وإرادته . وعنده أن الأسباب الخارجةَ عن إرادتنا هي القضاء والقدر.

وهذا المذهب قريب مما ذهبت إليه الفلسفةُ الحديثة ، من القول بالاضطرار تحت ضغطِ عواملَ قاهرة ، من النفس أو من البيئة الخارجية .

والقضية كما يبدو ، لا أول لها ولا آخر ، وما تزال الحرب سجالاً بين مذهبي الجبر والاختيار .

وإن كان الأخلاقيون قد قرروا مسئولية الإنسان عن عمله إلا أن يكون عمله تحت ضغط دوافع غالبة على إرادته خارجة عنها .

والقوانين الوضعية على اختلافها ، تقضي بالمسئولية مع تقدير الدوافع القهرية والظروفِ المعطلة لإرادة الإنسان .

وبعيداً عن جدل المتكلمين وحوار الفلاسفة وقوانين المشرعين وأحكام الأخلاقيين ، أعلنت الصوفية رأيها الجهير :

« إن للهِ عباداً إذا أرادوا أراد ».

وهم يعدون أنفسهم أصحابَ الحقيقة ، وغيرَهم أصحابَ الشريعة والنزاع بينهم وبين الفقهاء ذائع مشهور [2]

* * *

وأيّاً ما كان الأمر ، فقد انتهى الموقف في البيئة الإسلامية إلى شيوع مذهب الجبر ، لأن الذين قالوا بالاختيار ، كانوا معتزلة أو صوفية

---

١ في : الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة .

٢ انظر فيه رسالة « النزاع بين الفقهاء والمتصوفة » للدكتور عبد المحسن الحسيني .

وبينهم وبين الجمهور من أهل الشريعة خصومة جهيرة معلنة . وقدأعانت ظروف سياسية وأوضاع اجتماعية ، في عصور التخلف ، على انتصار الجبر لأنه يريح من تكاليف المسئولية ، ويعفي من همِّ التفكير فيما كان ويكون ، ويخدر بلذة الاستسلام المطلق لكل ما تجيء به الدنيا .

وهكذا غبرت عصور ، رسّختْ فينا القولَ بوجوب أن ندعَ الخلق للخالق ، وزينت لنا أن التوكل على الله ينفي السعيَ ، وأن طموحنا إلى حياة أفضل ينافي التسليم الواجبَ بما كُتِب علينا من قبل أن نخلق ، وأن الضيقَ بوضع من الأوضاع أو رفضِه ، فيه ما يشبه الاعتراض على إرادة الخالق ومشيئته ، والمؤمن لا يعاند القدر .

والتصقت الجبرية بالإسلام .

وربط نفر من المستشرقين بين تخلُّفِنا وبين هذه الجبرية في ديننا والذين تزيوا منهم بزي الإنصاف دافعوا عن جبرية الإسلام بأنه لم يستحدثها ولم ينفرد بها عن أديان سبقته ، وزادوا فردوا الجبرية إلى طبيعة متأصلة في العرب من قديمهم البعيدِ قبل الإسلام ، فيقول « جوستاف لوبون » :

« وليس فيما يوصَم به الإسلام من الجبرية ما يجوز أن يُعَدَّ به محمدٌ أكثر مما في التوراة ... وليس في آي القرآن التي ذكرناها آنفاً ، من الجبرية ما ليس في كتب الأديان الأخرى ومنها التوراة . وهناك فلاسفة وعلماء لاهوت يعترفون أن مجرى الحوادث تابع لسُنةٍ لا تتبدل . وكتب جميع الأمم الدينية مفعمة بالجبرية التي يسميها القدماء القدرَ الذي لا رادَّ لحكمه . ولم يكن محمد جبرياً أكثر من مؤسسي الأديان الذين ظهروا

قبله ... والعربُ كانوا جبريين بمزاجهم قبل ظهور محمد ، فلم يكن لجبريتهم تأثير في ارتقائهم كما أنها لم تؤد إلى انحطاطهم » [1] .

وتابعهم على ذلك متابعون من الدارسين المعاصرين ، ولم يتجهوا إلى البحث في حقيقة هذه الجبرية الإسلامية ، بل تلقوها على أنها بديهية لا تحتمل المناقشة . ثم كان همُّهم أن يردوها كذلك إلى جذور لها بعيدة قبل الإسلام ، في الفلسفة الميتافيزيقية ، وفي طبيعة متأصلة في العرب ، ومزاج لهم موروث من قديم الحقب والأدهار . وقد كتب «الدكتور أبو العلا عفيفي» في الفصل المنشور له بعنوان : التأويل العقلية والصوفية في الإسلام [2] :

«المسألة الخلقية — في الجبر والاختيار — لها جذور في الفلسفة الميتافيزيقية الأكثر شمولاً وهي مسألة إدراك الله في علاقته بالعالم عموماً والناس خصوصاً . ولقد أدت نظرة التشاؤم عند الساميين الذين يرون في العالم ظلاً زائلاً وشيئاً لا قيمة له إلا بقدر ما يهيىء به المرء لنفسه فيه مكاناً لحياة أخرى أكثر بقاء ، إلى القول بأن الله هو صاحب القوة والسلطان المطلق على الكون والإنسان ، وفي القرآن الكريم نجد آثاراً واضحة لهذا المعنى : « لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون .. يخلُق ما يشاء .. فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء .. إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

---

١ حضارة العرب : الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر ، ص ١٥٧ وما بعدها ط ٢ الحلبي بالقاهرة .

٢ في كتاب : « الإسلام ، الصراط المستقيم » والنص المنقول هنا يقع من ص ٢٠٤ ، ج ١ ، ط بيروت .

ثم يمضي الدكتور عفيفي بعد أن ربط هذه الجبرية في القرآن ، بفطرة التشاؤم عند الساميين فيقول : « إن هذا جانبٌ واحد من الصورة وهو يؤكد من ناحيته اللاهوتية سلطانَ الله المطلقَ على خلقه . ويُري من ناحيته الخلقية ، النظريةَ الجبرية في أعمال المرء .

« أما الجانب الآخر من الصورة فإنه يُظهر الناحيتين وقد ارتبطت إحداهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً . فالله الذي وُصِف بأنه صاحب السلطان والإرادة العليا ، وصف نفسه بأنه عادل .

« ومن الواضح أن المذهبين المتناقضين : الجبر والاختيار ، يمكن اقتفاءُ أثرهما في نزاع بين مفهومين لطبيعة الله : القوة المطلقة ، والعادل . وقد فضل المسلمون المتقدمون ، الذين كانوا أبناء الصحراء البررة ، أن يفكروا في اللهِ على غرارِ إله القبيلة ذي السلطة غير المحدودة (؟!) وهو المفهوم الذي اقتبسوا منه نظريتَهم في الجبر [1] . فإلههم يستطيع أن يفعل كل شيء حتى ما هو غير عادل ولا منطقي . والإنسان ليس إلا أداة بين يدي ربه ، فهو يخضع لأدق قوانين الجبر .. وعُرِف باسم القَدَرية . وقد أدى بالإسلام إلى أن يوسَم بأنه دين يؤمن بأن كل شيء قضاء وقدر » [2] .

ثم دافع عن الإسلام ، فقال إنه يعطي أكبر الأهمية لدور الإنسان

---

١ أقول : بل اقتبسوها ، إن جاز أن توصف بالنظرية عند المسلمين الأولين ، من آيات قرآنية محكمة والله هو ما عرفوه من كتاب دينهم لا ما تصوروه عل غرارة إله القبيلة وقوله : « فإلههم يستطيع أن يفعل كل شيء حتى ما هو غير عادي ولا منطقي » فيه جفوة ينبو عنها حس المؤمن .

٢ الإسلام ، الصراط المستقيم . المقال نفسه .

في أعماله ، وأن جذور عقيدة الاختيار – التي قال بها المعتزلة – موجودة في القرآن نفسه « وأن الآيات القرآنية التي تؤيد مذهب الاختيار ، تفوق في عددها كثيراً تلك التي تقول بالجبر »[1] .

ونراه هنا ، لم يُضف عنصراً جديداً إلى القضية في البيئة الإسلامية ، اللهم إلا إقحام صورة إله القبيلة على تمثُّل المسلمين الأولين لله ! دون أن يحل عقدة الموقف بحال ما ، فليست المسألة مسألة عددية تُحَلُّ بأن آيات الاختيار في القرآن أكثر من آيات الجبر ؛ ثم تواجهنا بمشكلة اختلاف في القرآن : يقول في المسألة الواحدة بالجبر ويقول بالاختيار !

* * *

وسنظل ندور ونحور ، في متاهة يحار فيها الدليل ، إذا نحن وقفنا عند نقل ما قال أصحاب الجبر وأصحاب الاختيار .

إلا أن نعود من نقطة البدء إلى كتاب الإسلام نفسه ، متحررين من الالتزام بأي قول سابق في القضية ، ولو بدا من المسلمات البديهية .

ونحدد مفهوم الإرادة ، فنقول إنها لا تعني مجرد الرغبة والميل ، ولا هي تقف عن التفكير والاتجاه إلى عمل ما ، إنما تكون الإرادة حين تنتقل النية إلى عمل ، ويستقر العزم عليه في تصميم مهما تكن العوائق والموانع .

ومبدأ «الأعمال بالنيات» لا يعني الإلزام بالمسئولية على مجرد النية ، بل يقدر سبق العمد ويفرق بين أعمال تمتْ عن إرادة وتصميم ،

---

١ الإسلام ، الصراط المستقيم . المقال نفسه .

وأخرى بَدَرتْ عن غير نية . فالعبرة بالعمل عن سبق نية ، حتى مع وجود موانع خارجية تحول دون نفاذ العمل بعد القصد إليه والشروع فيه.

وإذ كانت الرغبة تمهيداً للإرادة ، وكان العزم من لوازمها ، فمن الضروري أن نتدبر استعمال القرآن لكل من الرغبة والعزم ، لعله يضيء لنا سبيلنا إلى تدبر موقفه من الإرادة .

ويشهد التتبع الدقيق ، بأن الرغبة لم تأت إطلاقاً في القرآن الكريم ، مسندة أو مضافة إليه تعالى ، وإنما جاءت مادة «رغب» في كتابه المحكم ثماني مرات ، كلها بلا استثناء ، للمخلوقين لا للخالق .

وكذلك الأمر في العزم ، لم يأت قط مضافاً أو مسنداً إلى الله ، ولا وُصف سبحانه بأنه ذو عزم ، وإنما العزم في كتاب الله لعباده . يطرد ذلك ولا يتخلف في المواضع التسعة التي جاء فيها العزم في القرآن ، بصيغة الفعل أو بصيغة المصدر .

والعزم في القرآن يأتي بمعنى التصميم والنفاذ :

« ولا تعزموا عقدةَ النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجلَه »

« فإذا عزمت فتوكل على الله »

وهذا الاستقراء ، جدير بأن يلفتنا إلى ملحظ دقيق ، هو الفرق الجوهري بين مفهوم الإرادة حين تكون من الخالق حكماً وقضاءً ، ومفهوم الإرادة حين تكون من المخلوقين رغبة واختياراً وعزماً .

• • •

وفي ضوء هذا البيان القرآني ، نمضي في تتبع استعماله للإرادة ، فنجدها جاءت فيه في نحو ١٤٠ موضعاً ، كلها بلا استثناء بصيغة الفعل الماضي ، أو المضارع ، فحسب !

وعجيب أمر هذا الكتاب في إحكام بيانه واطراد نسقه وأسرار إعجازه: فعلى كثرة ما جاء فيه من فعل الإرادة ، لم يستعملها قط بصيغة الاسم والمصدر أو أي صيغة من مشتقاته ، وإنما هي فِعلٌ لا غير .

ولا يأتي الفعلُ منها بصيغة الأمر ، في أي موضع من القرآن كله .

وهو ملحظ لم يلتفت إليه المفسرون ، ولا المتكلمون في الإرادة ، فيما قرأت .

وأعترف بأن سره البياني يفوت إدراكي ، وأقصى ما لمحته منه بعد طول تدبر واستقراء لكل ما في القرآن منه : أن هذا البيان المعجز لا يعرف الإرادةَ إلا عملاً وفعلاً ، فليست عنده من المجردات الذهنية التي تختص بها الأسماء والمصادر ، ولا هي من الصفات التي تُطلق على الأشخاص أو تضاف إليهم . فكأن العبرة في الإرادة بالفعل ، لا بالتصور أو الوصف أو الادعاء .

أما قصرُ استعمال فعل الإرادة في القرآن كله ، على الماضي والمضارع دون الأمر ، فالذي اهتديت إليه من سره البياني هو أن مناط الإرادة في القرآن الكريم ، وقوعُ الفعل ، لا الأمرُ به أو الحملُ عليه .

لافتاً إلى أن الإرادةَ لا تكون بأمرٍ ينتفي به جوهرُ الإرادة من حيث هي مشيئةٌ واختيار .

* * *

وأتابع تدبر آيات القرآن في الإرادة ، فأجد فعلها مسنداً إلى الله تعالى ، مذكوراً أو مضمراً ، في نحو خمسين آية ، وإلى غيره من مخلوقاته في نحو تسعين .

وآيات إرادته تعالى ، فيها النص الصريح على أنها كل شيء ، فهو تعالى : «. يفعل ما يريد» سبحانه «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

على حين تقرر الآيات الأخرى ، أن إرادة المخلوقين هي التي تسبق فتختار ، وبعدها تأتي إرادة الله وفقَ ما أردوا . وأتلو منها قوله تعالى :

«ومَن يُرد ثوابَ الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثوابَ الآخرةِ نؤته منها وسنجزي الشاكرين ».

(آل عمران : ١٤٥)

«من كان يريدُ ثوابَ الدنيا فعند اللهِ ثوابُ الدنيا والآخرةِ وكان الله سميعاً بصيرا ».

(النساء : ١٣٤)

« من كان يريد حرثَ الآخرة نزد له في حرثِه ، ومن كان يريد حرثَ الدنيا نؤتِه منها وما له في الآخرة من نصيب ».

(الشورى : ٢٠)

« ومن كان يريد الحياةَ الدنيا وزينتَها نُوفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخَسون ».

(هود : ١٥)

«من كان يريد العاجلةَ عجلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يَصلاها مذموماً مدحوراً ».

(الإسراء : ١٨)

« يا أيها النبيُّ قل لأزواجِك إنْ كنتن تُردْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالينْ أمتعْكُن وأسرحْكن سراحاً جميلاً . وإن

كنتن تُردن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

(الأحزاب ٢٨ : ٢٩)

فلمن الإرادة : للخالق أم للإنسان ؟

لا نملك أن نأخذ ببعض آيات الإرادة في القرآن ونعرض عن بعض .

فهل نقول إن القرآن يقرر الجبر ، كما يقرر الاختيار ، هكذا على الإطلاق فيهما ، فنتورط في القول بتناقضه واختلافه ، حاشاه ؟

أو نُرجح الاختيار لمجرد ملحظٍ عددي ، نسجل به أن آيات الإرادة الإلهية ، نحو خمسين ، يقابلها نحو تسعين آية ، الإرادةُ فيها للمخلوقين ؟

إننا إن فعلنا ، ظلت العقدة عصية ، وعدنا نخبط في المتاهة دون أن نصل إلى طمأنينة واقتناع .

* * *

وإنما تنحل عقدة الموقف ، فيما أرى ، إذا نحن التفتنا إلى ما هدانا إليه البيان القرآني ، من أن مفهوم إرادة المخلوق فيه ، غير المفهوم من إرادة الخالق :

إرادتنا كسبية ، مصحوبة بعزم مسبوق برغبة وتفكير ، وليست كذلك إرادة الله حيث لا يجوز عليه تعالى أي عمل أو صفة كسبية ، على ما هو مقرر في علم التوحيد .

من ثم ، لم يُسنَد إليه تعالى فيما قدمنا من استقراء لآيات القرآن ، وكذلك الأمر ، حيثما وصف الخالق بما يوصف به المخلوق ، كالعلم والغنى والعزة والقوة ... علم الله لدني قديم غير محدث ، وعلمنا أو غنانا كسبي

طارىء ومخلوق محدث ، تجوز عليه أعراض الحدوث من تفاوت وزيادة أو نقص ، أو زوال عزم أو رغبة ، أو ما شابه ذلك من الصفات المحدثة والأعمال الكسبية .

وإنما تُفهَم إرادة الله ، في القرآن كله ، على أنها حُكم نافذ وقضاء مبرم ، وليست كإرادتنا عزماً على أمر أو سعياً وراء مُرادٍ نصمم على إنفاذه :

« إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كن فيكون ».
(يس : ٨٢)

« إنما قولُنا لشيءٍ إذا أردناه أن نقولَ له كنْ فيكون ».
(النحل : ٤٠)

• • •

وبهذا الفهم الواعي للفرق بين فعل الإرادة حين يسند إليه سبحانه ، وحين يسند إلى مخلوقاته ، نتدبر الآيات التي حكّمَت الإرادةَ الإلهية العليا في مصاير الأمم والأفراد ، فنراها ألقت عليهم مسئوليةَ ما صاروا أو يصيرون إليه ، بشاهدٍ صريح من سياقها .

فآية الإسراء : الإرادة الإلهية فيها أمر نافذ ، وقد جعلت الترف بما هو ذريعة بغي وفساد ، مسئولاً عن سوء المصير . وهي مسبوقة بآية وزر الضلال ومثوبة الهدى :

«من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلُّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » — ١٦

وآية الأحزاب ، جعلت إرادة الله حكماً نافذاً لا مفر منه على من خانوا مسئولية العهد :

« ولقد كانوا عاهدوا اللهَ من قبلُ لا يُولون الأدبارَ وكان عهدُ الله مسئولا . قل لن ينفعَكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتلِ وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يَعصِمُكم من اللهِ إنْ أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دونِ اللهِ ولياً ولا نصيرا » — ١٦

وآية هود ٣٤ :

« ولا ينفعكم نصحي إن أردتُ أن أنصحَ لكم إن كان اللهُ يريد أن يُغويَكم هو ربكم وإليه ترجعون ».

هذه الآية التي طالما واجهتنا حيثما قيل بجبرية الإسلام ، لا يجوز أن تؤخذ مبتورة من سياقها في الملأ الذين كفروا من قوم نوح وقالوا لنبيهم : « ما نراك إلا بشراً مثلَنا وما نراك اتبعكَ إلا الذين هم أراذلُنا باديَ الرأيِ وما نرى لكم علينا من فضلٍ بل نظنكم كاذبين ».

وقد نصح لهم نوح فضاقوا بنصحه : « قالوا يا نوحُ قد جادلتنا فأكثرتَ جدالَنا فأتِنا بما تعِدنُا إن كنتَ من الصادقين . قال إنما يأتيكم به اللهُ إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي ...» الآيـــة .

وآية يس ، قد أبطلتْ شفاعةَ آلهةٍ تُتخذُ من دون اللهِ أرباباً هيهات أن تنقذ من حكم الرحمن :

«أأتخذ من دونِه آلهة إنْ يُردنِ الرحمنُ بضُرٍّ لا تُغنِ عني

شفاعتُهم شيئاً ولا ينقذونِ إني إذن لفي ضلال مبين » — ٢٣

ومثلها آية يونس :

« ولا تدعُ من دونِ اللهِ مالا ينفعُك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسْك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يُرِدْكَ بخير فلا رادَّ لفضلِه » — ١٠٧

وآية التوبة ٤٦ :

« لا يستأذِنُك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنُك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبُهم فهم في ريبِهم يترددون . ولو أرادوا الخروجَ لأعدّوا له عُدةً ولكنْ كرِه اللهُ انبعاثَهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالَكم يبغونكم الفتنةَ وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » .

الآية جعلت تثبيطَ الله حكماً مبرماً على المترددين في الجهاد عن ارتياب في قلوبِهم ، فكَرِه اللهُ انبعاثَهم مع المؤمنين حتى لا يكونوا ذريعة فتنة .

وآية الرعد التي جعلتْ إرادةَ اللهِ بقومٍ سوءاً حكماً لا مرد له :

« وإذا أراد اللهُ بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونِه من والٍ »

مسبوقة بقوله تعالى في صدرِ الآية نفسها :

« إن اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسِهم » — ١١

ومثلها آية الأنفال فيمن كفروا بآيات الله :

« فأخذَهم اللهُ بذنوبِهم إن اللهَ قويٌّ شديدُ العقاب . ذلك بأن اللهَ لم يكُ مغيراً نعمةً أنعَمَها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسِهم وأن الله سميعٌ عليم » — ٥٣

وقوله تعالى في آية هود :

« إن ربّك فعّال لما يريد ».

جاء حكماً نافذاً على أمم وثنيةٍ بائدة ، ضلّت وظلمتْ فأخذها الله بظُلمِها :

« وما ظلمناهم ولكنْ ظلموا أنفسَهم فما أغنت عنهم آلهتُهم التي يَدعُون من دونِ اللهِ من شيءٍ لما جاء أمرُ ربِّك وما زادوهم غيرَ تتبيبٍ . وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخَذَ القرى وهي ظالمةٌ ، إن أخذَه أليم شديد ... »

إلى قوله تعالى :

« فأما الذين شَقُوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيق . خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرض إلا ما شاء ربُّك إن ربَّك فعّالٌ لما يريد » — ١٠٧

* * *

وأحتاج هنا إلى استطراد أشير فيه إلى مقال نشره الأستاذ الزميل «الدكتور مصطفى الزرقا» [1] تعقيباً على محاضرة لي في «القرآن وحرية الإرادة» ألقيتها بالكويت في نوفمبر عام ١٩٦٥ .

لقد وقف الأستاذ عند تخريجي لآيتي هود ويس وأمثالهما فقال : « إن

---

١ في مجلة الإيمان المغربية (ديسمبر ١٩٦٧) ثم ، بنصه ، في مجلة الوعي الإسلامي الكويتية (مارس ١٩٦٨) .

هذه الآيات بقيت محل تساؤل : كيف يمكن توفيقها مع هذا التأويل الجديد للدكتورة بنت الشاطىء بصورةٍ يزول منها إشكال الجبرية : فمن ذلك قوله تعالى على لسان نوح لقومه : « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم » واضح أن مناط احتجاج الجبرية إنما هو في تسليط الإرادة الإلهية على الإغواء وتعلقها به . فلو كان متعلقها غيرَ الإغواء من عذاب أو سوء عاقبة ، لصحّ للسيدة تأويلها ..

«وكذلك آية يس « أأتخذ من دونه آلهة إن يردنِ الرحمن بضر لا تُغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون » السياق فيها هو موازنة بين قدرة قادر وإرادته المطلقة ، وعجز العاجزين ... فيبقى في ظاهر الآية متمسكٌ للجبرية في أن ما يقع للناس من خير وشر ونفع وضر ، إنما هو بإرادة الله تعالى التي لا محيص لهم منها ».

أقول : لا وجهَ عندي لهذا التساؤل ، فلم أقلْ إن إرادة الله حين تأتي حكماً مبرماً تقتصر على الجزاء والتعذيب ، وإنما يصدُق حكمُ الإرادة النافذة على الإنسان بما أراد لنفسه من خير أو شر ، من هُدىً أو ضلال :

«فأما من أعطى واتقى . وصدّق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى » — الليل .

وعلى هذا يصح تخريج كل آيات الإرادة الإلهية في تعلقها بالنفع أو الضر وبالغواية أو الهدى ، تيسيراً لليسرى أو تيسيراً للعسرى . والله قد هيأ للإنسان وسائل البصر والتمييز فجعله سميعاً بصيراً :

«إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ».

«ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفتين . وهديناه النجدين ».

كما صحّ تخريجها في تعلقها بالجزاء والعقاب . حكماً عادلاً وجزاءً وفاقاً : « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ».

وأقدر مع ذلك ما رآه الأستاذ الزميل ، من أن هذه الآيات جاءت كلها في مقام التعبير عن قدرة الله المطلقة في ذاتها ، وليست تعبيراً عن واقع . ولذا جاءت في صورة الشرط : « إن يردن الرحمن بضر .. .. إن كان الله يريد أن يغويكم » فالمراد بيان أن قدرته تعالى وإرادته لا يستطيع أحد أو شيء أن يحدّ من سلطانهما حتى لو أراد الله أن يغوي أحداً أو يظلمه ... لأن قدرته تعالى وإرادته مطلقتان كما أن علمه محيط . وهذا لا يدل على أن الله تعالى يظلم فعلاً أو يلحق بأحد ضرراً دون استحقاق . فهو تعالى قادر على العدل والظلم ولكنه لا يغوي ولا يظلم ولا يرضى لعباده الكفر ولا يسوقهم إليه . وذلك كما تقول إن فلاناً يستطيع أن يفعل كذا وكذا من خير أو شر ، ولو أراد أن يقتل فلاناً لفعل ... ولا يفهم أحد من ذلك أنه فعل أو يفعل ما يستطيعه».

وأضيف إلى هذا الملحظ الهام ، ما يقرره القرآن الكريم من ثبات السنن الكونية مع قدرته تعالى على نقضها . فلا تناقض بين قوله تعالى :

« فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا »

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »

وبين الآيات المثبتة قدرة الله تعالى على نقض سنن الكون وقوانين الحياة . وقد جاء بها البيان القرآني معلقة على شرط المشيئة الإلهية بحرف

«لو» المفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ، أو مشروطة بحرف «إن» المفيد تعذر الوقوع :

سبحانه ، لو شاء لجعل الليل أو النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، ولجعل ماء المزن أجاجاً ، ولاختلط الماء العذب الفرات بالماء المالح الأجاج لا يتميزان • وما كان الله ليعجزه من شيء في الأرض ولا في السمـــاء •

لكنه تعالى لم يشأ أن ينقض سننه الثابتة في النظام الكوني .

وكذلك الأمر في سننه تعالى في أعمال خلقه : لو شاء الله لهدى الناس أجمعين ، ولجعلهم أمة واحدة ليس فيها ضال فاسق . لكنه تعالى لم يشأ ، لتمضي سنته في خلقه ابتلاء وفتنة وتمحيصاً ، • فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا • .

• • •

وعرض السيد الدكتور بعد ذلك لآيات :

الأنعام ١٠٨ : « كذلك زيّنا لكل أمة عملهم ».

الأنعام ١١١ : « ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله»

الأنعام ٥٧ : « قل إن اللهَ يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء»

ورأى فيها مشكلةً على ما سبق لي من تأويل ، إذ أُسند فيها أصلُ السلوك الصالح أو الخاطىء من هداية أو ضلال ، إلى فعلِ الله تعالى ومشيئته .

ولا أراها مشكلة :

فآية الأنعام جاءت في سياق من أصروا على الضلال عمداً وصحّت إرادتهم على الشرك والعمى والعناد ، بعد تقرير مسئولية الإرادة :

«قد جاءتكم بصائرُ من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ • وكذلك نُصرف الآياتِ وليقولوا درَستَ ولنبينه لقومٍ يعلمون • اتبعْ ما أوحي إليك من ربِّك لا إله إلا هو وأعرِض عن المشركين . ولو شاء اللهُ ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل • ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْواً بغيرِ علم ، كذلك زيّنا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ».

واضح أن الآية في سياق تقرير حرية العقيدة ، وهي متلوَّةٌ مباشرةً، بآيات عنادهم وإصرارهم على الضلال ولو نزلت إليهم الملائكة وكلمهم الموتى :

« وأقسَموا بالله جهدَ أيمانهم لئن جاءتْهم آيةٌ ليؤمنُنّ بها ، قل إنما الآياتُ عند اللهِ وما يُشعِرُكم بأنها إذا جاءتْ لا يؤمنون • ونُقلب أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ، ونَذَرُهم في طُغيانهم يَعْمَهون • ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكةَ وكلّمهم الموتى وحشَرْنا عليهم كلّ شيءٍ قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاءَ اللهُ ولكن أكثرَهم يجهلون » . (الانعام ١٠٩ : ١١١)

وآية الرعد ، تمامها :

« ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يُضل من يشاء ويهدي من يشاء ويهدي إليه من أناب » ـــ ٢٧

واضح كذلك أنها تربط الضلالَ بعناد الكفار وممارساتهم الفاحشة ، كما تتعلق هدايةُ الله فيها بمن أناب .

وبعدها في السياق نفسه ، تتقرر مسئوليةُ الكسب ويتعلق إضلالُ الله بمن حقَّ عليهم العذاب من المكذبين الكافرين بالله المستهزئين برسله :

« ولقد استُهزىء برسُلٍ من قبلِك فأمليتُ للذين كفروا ثم أخذتُهم فكيف كان عقابِ . أفمن هو قائم على كلِّ نفس بما كسبَتْ ، وجعلوا لله شركاء قُلْ سَمُّوهم ، أم تنبئونه بما لا يَعلم في الأرضِ أم بظاهرٍ من القول ، بل زُيِّنَ للذين كفروا مكرُهم وصدُّوا عن السبيل ، ومن يُضلل الله فما له من هادٍ . لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ولعذابُ الآخرة أشق وما لهم من الله من واق » — ٣١ : ٣٤ .

وآخذ بما ذهب إليه الأستاذ الجليل من «أن تزيين الأعمال يمكن فهمه بمعنى تحويطها بما يجذب إليها ويغري بها من مُتَع وملذات ومنافع عاجلة وانفلات من القيود الملجمة ، في مقابل ما وضع الله في الإنسان من قوة العقل والتمييز والتبصر في العواقب .

وأن مشيئة الله تتعلق بعدم الحيلولة بين مخلوقاته وبين اتباع طريق الهدى أو الضلال . وتتحقق مشيئته بأن لا يريد الله تعالى استعمال قدرته في صرفهم وإن كان قادراً على ذلك «فهذا القدر من التخلية بين المكلف والمتطلقات التي أمامه في الخير أو الشر ، يدخل في حدود المشيئة متى كان صاحب هذه المشيئة قادراً على الحيلولة »

ثم أضيف : إن تزيين الله للناسِ أعمالَهم وحب الشهوات ، هو أيضاً من قبيل الابتلاءِ الذي يُمارس فيه الإنسان إرادته تقريراً لتبعةِ

الكَسْبِ والسعيِ ، وإلزاماً بما يتعلق بهما من اهتداء أو ضلال ، ومن ثوابٍ أو عقاب :

« ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا ترجعون ».

« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيَه سوف يُرَى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ».

• • •

وأعود من هذا الاستطراد إلى ما كنت فيه من موقف القرآن من حرية الإرادة فأقول :

إنني لا أذكر فيما قرأت من تاريخ الإسلام أن الجدل في حرية إرادتنا ظهر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أو عصر خلفائه الراشدين ؛ بل لست أعلم أن المسألة شغلت جيلَ الصحابة وقد تلقوا القرآن الكريم بروح نقية ، فلم يفهموا من إرادة الله إلا أنها حُكم نافذ وقرار عادل ، لا يُلغي الإرادةَ الكسبية للإنسان ، ولا يعفيه من تبعة اختياره الحر لعقيدته وعمله « ولو شاء ربك لآمَنَ مَن في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ».

وإنما ثار الجَدَلُ فيها في العصر العباسي وقد بَعُدَ العهدُ بالفطرة العربية النقية والفكرِ الإسلامي الصافي ، وشابتْ فهمَ المسلمين لكتابِ دينهم شوائبُ دخيلة ، أضافت إلى الإسرائيليات والمذهبيات والأذواق الأعجمية ، ما حملته الشعوب الطارئة على العربية والإسلام من تراثها الفكري والروحي ، فكانت مشكلةُ الجبر والاختيار من أعقد المشكلات التي بَلبلت الأفكار وحيّرت الألباب لشدةِ ما تدافعت فيها الأقوالُ وتصادمت الأدلّةُ .

ومع أن الفرق الإسلامية كلها عالجتْ المشكلةَ على أساسٍ من النظر في القرآن والسنة ، إلا أنها ما لبثت أن خرجتْ من ذلك النطاق ، ثم تلقفها من أرادوا أن يتخذوا الدين أداة لتبرير الأوضاع ، فتسلطوا على الجماهير يُلِحُّون على وجدانها المؤمن بأن تدع الخلقَ للخالق ، ويحذرونها من غضب الله إن هي حاولت أن تُغير واقعاً أو تطمح إلى شيء من الحق والحرية والعدل ، فكلُّ شيءٍ مسيّرٌ بقضاءِ الله وقدره ، لا حيلة لمخلوق فيه ، وكل ما نلقى مكتوبٌ على الجبين لا مَفرَّ منه ولا مرد له .

فكان ما كان من ذيوع القول بجبرية الإسلام .

وهذه آيات القرآن ، تهدينا إلى أن العزم لنا وحدنا ما بقينا في الدنيا ، والإرادة الكسبية إرادتنا ، وبهذه الإرادة الكسبية نختار لأنفسنا ما نختار محتملين مسئولية هذا الاختيار الحر .

أما الإرادة الإلهية فحكم نافذ ومصير محتوم . وإذا كان الله سبحانه يحكم علينا بما نريد لأنفسنا ، فليس ذلك إلا تقريراً حاسماً للتبعة ، وتأكيداً إلهياً لحرية إرادتنا ، وإلزاماً عادلاً لنا بمسئوليتها .

• • •

وتلخيصاً للموضوع أقول ، إن القضية إذا أريد فهمُها من القرآن ، فلا يجوز أن نأخذ ببعض آياته في الإرادة ونعرض عن بعض ، فيذهب كل فريق بما يؤيد رأيه . وإنما نستقرىء كل آيات الإرادة ، فتهدينا إلى ان مفهوم إرادتنا فيه غير مفهوم إرادة الخالق : إرادتنا كسبية حرة فيما نعمل ، وإنما الجبرية في حتمية المصير لما أردناه باختيارنا ، والحكم الإلهي العادل في إلزامنا تبعة اختيارنا الحر ، إلزاماً جبرياً لا مفر منه ولا مهرب .

وبغير هذه الحرية ، تنتفي حكمةُ إرسال الرسل ، وتتعطلُ قدرة الإنسان على حمل تكاليفِ أمانته في هذه الحياة الدنيا .

* * *

وبعدُ فما ينبغي أن يفوتنا أن ما يسميه عصرُنا «حقوق الإنسان» لا يأتي في القرآن بصفة الحقوق ، وإنما هي فيه فروض ملزمة وتكاليف واجبة .

والفرقُ بين أن تكون حقوقاً ، وأن تكون تكاليف مفروضة ، هو أن الإنسان يملك أن يتنازل عما هو من حقه ، وأن يفرط فيه .

على حين لا يحلُّ له أن يتخلى عما كُلِّف به وفُرِضَ عليه .

في الإسلام ، ليس لإنسان أن يفرط في حريته بالعبودية لغير خالقه وحـــده .

كما ليس له أن يقبل الإكراه في الدين ، ولا من حقه أن يتخلى عن أمانة الكلمة وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا أن يُعطِّل حرية عقله وفكره ، تحت أي ضغط من إرهاب أو إغراء ...